روح جندي



عنوان الكتاب: روح جندي

اسم المؤلف: منار منصور

المراجعة اللغوية: دار الفراعنة للنشر

رقم الإيداع: 2020/ 3054

الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-6780-06-4

محمول: 01006141645

تـ: 0239769176

رئيس مجلس الإدارة: إكرام عيد

المدير العام: م عادل التوتي

المدير التنفيذي: عزة إبراهيم

منار منصور

روح جندي

رواية

دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة

بداية

أتعلم ما أسوأ من الحرب؟

هو أن تترُك خلفك عائلات لا يعيلهم إلا السراب..

ففي الحرب تُنزِع إنسانيتك كنزع حبل سري لجنين لم يكتمل نموه أخرج من رحم والدته قسرًا

فإما أن يموتَ وإما أن تمُوتَ والدته ويبقى وحيدًا كبلدة خاوية تحتضن جُثث مواطنيها نتيجة قصفٍ أهلكَ جميع من فيها بينما كان هناك ناج واحد وهو طفلٌ أعمى..

فالحربُ لا تعرف بشريًا أو متحولًا فهي تنزِع عنك الإنسانية، فأنت بموافقتك عليها قد أوقعت نفسك في التهلكة..

التهلكة التي أقصدها هي قتل ذات جنسي دون أدنى رحمة، فأنت لا تدفن جثث أشخاص فقط

بل تدفن قصص حُب

تدفن دعوات والدة لأبنائها لم تصِلْ بعد

تدفن حلمَ أبٍ كان مُتلهفًا لسماع كلمة "بابا" من ابنه الرضيع

تدفن فرحة امرأة كانت تظُن أنها عقيم.. فماتت قبل أن تُدرك أن هنالك روحًا قد نُفخت في جوفها..

عزيزي القارئ.. أنت الآن تدخل أولى مخطوطاتي في مجال الكُتب، هذه روايتي الأولى قد تجد بها بعض الأخطاء الإملائية، اللغوية، والسردية، لكن أريدك أن تعلم أنني كتبت كل حرفٍ بها وأنا أشعر بما أكتبه من ألم وحزن وبكاء وفرح..

شظايا

يهربون من الألم إلى الأوراق والقلم

ولكن أنّى للأقلام أن تترجم الآلام

فهي لا تكتب بالدم

لا أنسى صوت أمي وبكاءها عندما أخبرتها أنه قد تم استدعائي لصفوف الحرب، دائمًا ما كنت أهرب من إجابة النداء لكن الآن أرى أنه قد جاءت فرصتي وحان موعدي..

"لا أريدك يا بني أن تذهب أنت أغلى عليَّ من وطني ومن فيه"

قبَّلتُ جبينها وتركت يديها وأمسكت بحقيبتي الصغيرة التي لم تكن تتجاوز بعض الأغراض الخاصة التي قد جهزتها لي أختي رُغمًا عني

أدرتُ ظهري لأمي وأنا أسمع بكاءها ونحيبها واستنجادها بإخوتي، سرت كي أودع إخوتي ظنًا منهم أنه الوداع الأخير مؤكدًا أنا في ذلك..

خرجت من المنزل بصعوبة بالغة بعد رؤية أمي في حالتها المحزنة والمبكية، وبعد توسلات إخوتي ومحاولتهم إقناعي بأنهم سيؤجلون رحيلي إلى العام القادم كما فعلوا مراتٍ عديدة..

ولا أنسى رفضي الكثير من الحقائب والحاجيات مُبررًا أنني ذاهب لصفوف الحرب وليس للسياحة..

"أين أنت هيا ستبدأ مناوبتك الآن"

توقفت عن الكتابة وأخفيتُ دفتري الصغير بجيب سترتي..

"هل بدأت في الكتابة؟" هكذا سألني زميلي أيمن

"نعم ولربما سيقرأ شخصٌ ما دفتري هذا

أتاني صوتٌ ساخر ليس بالبعيد " من سيقرأه؟ ملائكةُ السماء؟" وضحك، وأضاف "أنت لن تخرج يابني حيًا من هنا ولن يصل أحدٌ إليك أنت وكتابك هذا.. لم يخرُج أحد من هذه الحرب حيًا حتى الآن"

تجاوزتُ حديثه وتجاهلته، أخذت سلاحي وذهبت لأمسك مناوبتي، كنت أفكر في كلام الساخر هكذا أحببتُ أن أسميه، ماذا سيحدث إن لم تنته الحرب! بل أنا متأكد أنها لن تنتهي قريبًا..

في تمام الساعة 6:30 صباحًا

مازال الضباب الناتج عن البيوت المحترقة يحوم أمامي ويتشكل، مناظر لحفلات دامية ومجازر نساء، رجال وأطفال يهرولون خائفين مسلوبي العقول مرعوبين.. الجثث في كل مكان

أصوات الطلقات والصفارات تخرق المسامع، تهتزُ الأرض من أسفلهم بسبب الدبابات

القذائف تتساقط على المنازل كحبات المطر، البكاء والنحيب والاستنجاد بالضباط الذين يسيرون دون أية رحمة يطلقون على ما يرونه أمامهم

هكذا هي الحرب، هي الجنون في حد ذاته! لم يكن هنالك مهرب أو مخبأ..

لمحت في إحدى الزوايا امرأة حاملًا وأظن أنها كانت في شهورها الأخيرة والألم ارتسم على وجهها..

من الواضح أنها لم تستطع الهرب وجعلت أحد جدران البيوت المهدمة مخبًأ لها.. لم أستطع مساعدتها تمنيت لو أمكنني أن أمسك يديها وأطمئنها وأحميها ولكن! لم يكن يسمح لي.. ولو فعلت لاتهمت بالخيانة

فأكبر وأفضل مساعدة كان من الممكن أن أفعلها لها هي تركها مخبَّأة وألا أطلق النار عليها أو أفضح مكانها..

***

عدتُ إلى مهجعي بعد قضاء بعض الوقت مع زملائي الجنود لقد كانت هذه الجلسات الودية بيننا تخفف عني حزني وحملِي الثقيل..

كنتُ أتمنى أن أعودَ إلى ممري وزنزانتي المتسخة، أخرجت دفتري الصغير وقلمي من جيب سترتي.. أشعر بأنني أريد أن أتحدث إلى أحد

ليس زملائي الذين هنا. بل إلى شخص لا يفقه بأمور الحرب شيئًا ولم ير ما عايشناه هُنا..

استقررت على فراشي وسندت ظهري إلى الجدار الذي كان خلفي وبدأت في كتابة ما حدث معي اليوم..

علت أصوات الصفارات مدوية ضجيجًا قويًا ومنبهًا لنا أن علينا الاستيقاظ وأن أمامنا ساحة دماء جديدة.

الجميع كان مستعدًا ومتحمسًا إلا أنا فقد سئمتُ من هذه الجولات كثيرًا

استعددنا وتوجهنا لوجهتنا المشئومة، عندما اقتربنا وأصبحنا حول أنظار الناس بدأوا يركضون ويخرجون كالنمل المسعور

أصواتهم تعلو بالصراخ والنواح وأصواتنا تعلو بالضحك مستمتعين بما نراه..

انتشر الجنود كالدبابير يهاجمون كل ما يرونه ويقنصون كل ما تقع عليه أعينهم حتى الحيوانات لم تسلم منهم. بقيت واقفًا مكاني كنتُ ضيف شرف للساحة..

انتبه قائدي وبعض زملائي إليَّ فصرخ القائد مزمجرًا في وجهي "تحرك أيها الجندي!"

تنحنحت من مكاني وسرتُ إلى الأسفل إلى ساحة الدماء..

لكن أقصى ما استطعت فعله كان تصويب الرصاص على الموتى.. نعم الموتى وبعضٍ من الجرحى الذين أراهم يعانون فأسهِّل عليهم معاناتهم وأقتلهم..

تنفست الصعداء وشريط ذاكرتي يمر أمام عينيَّ وأشعر بأزيز الرصاص وصراخ الناس يباغت أذنيَّ..

أقبل عليَّ زميلي أيمن، شعرتُ به يتوقف أمامي وينظر إليَّ بتوتر.. رفعتُ رأسي إليه وارتسمت ابتسامة ودودة على وجهي "ماذا هناك يا أيمن؟"

قام بفرك يديه وشابك أصابعه "حسنًا هل يمكنني الجلوس إلى جانبك قليلًا"

عقدتُ حاجبيَّ "هل تستأذن؟ بالطبع تفضل واجلس"

ذهب التوتر عن وجهه ابتسم وجلس "رأيتك مُنهمكًا في الكتابة فخفتُ أن يكون قدومي إليك قد يزعجك"

تعدلتُ في جلستي واقتربتُ منه " لاعليك لم تزعجني"

ابتسمت "أيضًا كأنك تقرأ أفكاري"

"وكيف ذلك؟"

"كنتُ قد كتبتُ أنني بحاجة للحديث إلى شخصٍ ما لكن ليس عن الحرب وما شابه فأتيت أنت".

"حسنًا إذًا فدعنا لا نتحدث عن أمور الحرب.. لأن الحديث في ذلك يعكر صفو مزاجي، سأسألك ما سبب الندبة التي على خدك اليسرى"

تحسستُ خدي اليسرى "أثرٌ قديم لا عليك"

نظرتُ إلى ساعتي " لديَّ ساعتان قبل أن تبدأ مناوبتي ولا أريد النوم لأنني لن أستيقظ بعد ذلك، دعنا نتحادث قليلًا.. بالمناسبة لم تكمل لي آخر مرة تحادثنا فيها عن خطيبتك، هيا أنا متشوق لسماع قصتكما إنني أستمع إليك "

تنحنح أيمن وابتسم بحماسة " كانت تقطُن في نفس الحي الذي أقطنُ فيه، كنتُ أراها يوميًا تخرج من منزلها تذهب إلى الجامعه وقبل التحاقي بالكتيبة الذاهبة إلى الشمال ذهبتُ قبل ذهابي بيومين إلى إحدى المناسبات مع والدتي فرأيتها هناك وتبادلنا أطراف الحديث وأتت لكي تودعني يوم ذهابي وتتمنى لي الحظ الجيد والعودة مبكرًا. استمررنا في التواصل معًا أثناء وجودي في الشمال وتبادلنا الرسائل دومًا.

ناهيك عن شعوري الكبير تجاهها وفرحتي عندما علمت في إحدى رسائلها أنها تبادلني نفس الشعور.. وعندما عدت ذهبتُ إلى خطبتها من والديها وقررنا أنني عندما أعود من هنا سوف نتزوج فورًا.."

صمتَ فورًا وشعرتُ بأن الحماسة التي كانت على وجهه انقضت وذهبت

"ماذا حدث لك؟"

طأطأ رأسه "تذكرتُ ما أخبرتني إياه خطيبتي في آخر رسالة لها"

"ماذا؟"

" قالت إن العدو دخل مدينتنا لكن لم يُحدِثْ بها ضررًا كبيرًا وخرج سريعًا على غير العادة"

"إذن؟. يجب أن تكون سعيدًا أنه لم يصبهم أي مكروه"

"الأمر ليس هكذا... أخاف أن يعاودوا الدخول مرة أخرى ويكون الضرر أكبر. أصبحت خائفًا على والدتي كثيرًا. جلوس امرأة كبيرة في السن وحيدة هذا ليس بالجيد"

"ولماذا أتيت إذن؟ لماذا تركت والدتك وحيدة؟"

"كانت تعمل لديها خادمة ولكنها هربت عندما علمت أن العدو ظهر في المدينة وبقيتْ أمي وحيدة في المنزل، أوصيت خطيبتي بأن تبحث لها عن خادمة جديدة وأن تذهب إليها وتزورها دائمًا لكني أقلق عليها كثيرًا"

"لا تقلق لن يصيبها أي مكروه"

تبادلنا أطراف الحديث أنا وأيمن حتى حان موعد مناوبتي وذهبتُ تاركًا أيمن وقد انقض عليه النعاس..

***

وجدتُ الراحة بعد الحديث مع زميلي خصوصًا بعد أن سمعتُ منه كلامًا أراحني عن أمي وعدم القلق عليها والدعاء لها، كنتُ بحاجة إلى الحديث مع شخص مثلما كان هو أيضًا بحاجة للحديث كما أخبرني..

في مكانٍ آخر

"أماه ما هذا الصوت المُخيف؟" واحتضنها من الخلف بقوة

قالت الأُم ونبرتها ترتعش كآخر ورقة تسقط في فصل الخريف "لاشيء يا حبيبي ليس سوى صوت ألعاب نارية أطلقها الصبية، هيا فلتتجهز للنوم"

"سأذهب لأرى جدي قليلًا ثم سأنام"

التفتت الأم إليه وقبَّلت جبينه، خرج الصبي الصغير من المطبخ بينما ظلت الأُم واقفةً مكانها تبكي في صمت واضعة يدها على فمها مانعةً نفسها من إصدار أي صوت لبكائها..

أتى صوت من الخلف"ألعاب نارية يا أمي!"

أجهشت الأم في البكاء "ماذا يمكنني القول له غير ذلك"

اقتربت من والدتها واحتضنتها "أخاف يا أمي.. أخاف أن نكون نحن من ضحايا هذه الألعاب أيضًا!..."

***

كانا يجلسان بجانب بعضهما.. صبي صغير ذو سبعة أعوام وجده الكهل.. ينظران إلى السماء والنجوم المتلألئة

التفت إلى جده وخرج منه ذلك الصوت الطفولي "لقد قالت لي أمي يا جدي إن أبي ذهب إلى الأعلى إلى هذه النجوم، هل يمكنه أن يراني من هناك؟"

انتظر الصبي ردًا من جده، لكن لم ينطق الجد حرفًا واحدًا، الصبي يعانق السماء مرة أخرى..

لحظات صمتٍ طويلة قطعها صوت الجد وهو يقول "شوهوا سماءنا، حرقوا قلوبنا، استحلوا أرضنا واستباحوا حُرماتنا"

"ماذا تقول يا جدي؟ هل أبي؟"

"ليس أباك يا صغيري بل من سلبوا روح أبيك"

وقبل أن يقول الصبي شيئًا "هيا يا أحمد فقد حان موعد نومك"

***

كُلما دخلتُ نزاعًا مع نفسي أضع حاجز ضباب بيننا وعندما يزول الضباب أعلم أن الصلح قد تم. لكن هذه المرة قد استولى عليَّ الضباب حتى اختفيت، ولا أظن أن للصلح مكانًا بيننا..

أستمتع كثيرًا برؤية الشروق فهو يبعث في نفسي السعادة ونسمات الصباح الباردة المنعشة تبث فيَ الراحة والطمأنينة

انقضت ست ساعات وانتهت مناوبتي مع طلوع الشمس، ذهبتُ لغسل وجهي بعد ما أفقت زميلي الذي أمسك مكاني..

دخلتُ مخيَّمي ورأيت أيمن نائمًا في مهجعي، لقد كنتُ متعبًا لكني لم أوقظه وذهبتُ للنوم في مخيَّمه..

"تبًا لكم.. هكذا قلت عندما سمعت صوت الصفارات اللعينة.. نظرتُ إلى ساعتي فلم أستطع النوم سوى ساعة فقط!

يا إلهي ما هذا العذاب! سحبت الوسادة من تحت رأسي ووضعتها فوق وجهي وأنا أسب وأشتم وأصرخ في داخل الوسادة.. شعرتُ بأحد يسحب الوسادة من على وجهي وظهّرَ لي وجه أيمن "هيا استيقظ"

جلستُ متأففًا "وهل نمتُ لكي أستيقظ"

"هيا قبل أن يأتي القائد ويراك هكذا، وآسف لأني نمت مكانك بالأمس، انتابني النعاس ولم أشعر بنفسي وغفوت هناك"

"لاعليك.. هيا ساعدني على الوقوف"

تجهزنا سريعًا وركبنا السيارات الكبيرة والمكشوفة متجهين لمكان مشئوم آخر.. دخلنا القرية الصغيرة، أجواؤها كانت تبعثُ على الهدوء والسلام

حتى ذاعت أصوات أبواق سياراتنا معلنة قدومنا... ثوانيَّ قليلة حتى تحول ذلك الهدوء والاستقرار إلى كابوس لأصحاب القرية

خرج الناس أفواجًا من منازلهم هاربين متناسين منازلهم وما خلفهم

انتشرنا نقتل ونهدم وبينما نحن مشغولون سمعنا صراخ القائد واتجهنا أنا وبعض من الجنود إلى المنزل الذي كان القائد بداخله ووجدنا القائد وخمسة من الجنود معه بينهم أيمن

لقد حاول الاقتراب والتعدي على امرأة، ولكنها غرست سكينًا في كتفه مما جعله يطلق صرخة غاضبة منها، أمسكها من شعرها ووضعها أسفل رجله وهي ترجوه بأن يتركها وطفلها يبكي في الزاوية الأخرى بحرارة

رفع المرأة من شعرها ووضعها أمامه " هل ذلك طفلك؟"

هزت رأسها بنعم " أقسم لك أنك ستندمين بشدة على ما فعلتيه بي لن أدعك تذوقين الراحة حتى في الموت"

التف على أيمن وأشار إليه بأن يأتي إليه.. استجاب له أيمن واقترب منه " الآن أيها الجندي أريدك أن تأخذ تلك السكين المرمية على الأرض وأن تطعن بها ذلك الطفل في كتفه"

هزت المرأة رأسها بـ لا وهي تصرخ وقد *اغرورقت عيناها بالدموع* "أرجوك أرجوك لا تفعل ذلك أتوسل إليك افعل بي ما شئت لكن لا تؤذي طفلي".

أرجع رأسها للخلف ممسكًا لها شعرها "كنتِ ستفكرين في طفلك قبل أن تؤذيني" وأشار لأيمن بعينيه أن يذهب، دنا أيمن ليأخذ السكين بتردد كبير وخوف أكبر والتقت عيناه بعينيَّ

شعرتُ بألم كبير فيهما وكأنه يحاول الاستنجاد بي.. ذهب في اتجاه الطفل، والطفل ما زال يبكي وصوت بكائه يُقطِّع فؤاد والدته اقترب منه ودنا وصوت الأم يعلو وهي ترجو القائد وأيمن، أمسك يد الطفل ليثِّبتها ورفع السكين في اتجاهه وأغمض عينيه شعرتُ به مترددًا خائفًا، أنزل السكين واستجمع قواه والتفت إلى القائد "أنا لا أستطيع فعل ذلك يا سيدي"

تجهم وجه القائد وصرخ فيه "ماذا تقول سوف أغرسها بكتفيك الاثنتين إن لم تفعل ما آمرك به"

***

استجمعتُ قواي قليلًا وما ساعدني أيضًا على ذلك أن الطفل قد صمت وهو ينظر إليَّ

أمسكت بيد الطفل من جديد ورفعت السكين بينما صوت الأم وتوسلاتها ما زالا يدويان

حاولتُ النزول بالسكين على الطفل لكني لم أستطع!

أغمضتُ عينيَّ ثم شعرتُ بيد تخطف السكين من يدي ودوت صرخة من الطفل

فتحتُ عينيَّ ورأيت السكين مغروسة في يد الطفل

فشهقتُ كأنما رأيت شبحًا أمامي امتلأت عيناي بالدموع لم أستطع الرمش أو إبعاد نظري عن هذا المنظر.. الدماء أحاطت الطفل من جانبه الأيسر

لِمِ لَمْ أحاول إنقاذه؟ لمَ لم أهرب به؟ لكني لم أكن أستطيع إنقاذه حتى لو أردت هذا.. من؟ من ذلك؟ نظرت إلي جانبي فرأيت زميلي كيف؟. كيف استطاع فعل ذلك! وأنا أكثر من يعلم بأنه لا يستطيع أن يرفع سلاحه أمام أي شخص! وبالخصوص أمام طفل!

قطع تفكيري صوتٌ أتي من خلفي، صرخت بأعلى صوتٍ لها ممزقة صمتنا القاسي على روحها بينما كانت الدموع تسبق كلماتها التي اختلطت مع فؤادها المنكسر.. حاولت الخروج من قبضة القائد لكنها لم تستطع فانتهى دور التوسلات وأتى دور الشتائم

مما جعل القائد يغضب ويصرخ في وجه أيمن وهو يقول "افعل ما آمرك به واقتله! وإلا فسوف أسلب روحك بيديَّ هاتين"

***

لم أعلم ما القوة التي تملكتني كيف استطعتُ فعل ذلك؟ رأيت الطفل يبكي بحرارة وكأنه يختنق والدماء تسيل على كتفه وبطنه رؤيته بهذا المنظر كانت كالطعنة في جرحٍ دام بِي

انتزعتُ السكين من كتفه بأقوى ما لديَّ ظننتُ أنني بذلك سأخفف الألم عنه

خرجتُ من المنزل عندما صرخ القائد على أيمن وأمره بقتله استنزفت طاقتي وقوتي بكاملها ولن أستطيع رؤية أكثر من ذلك، توقفتُ عند باب المنزل أنظر في الأرجاء كأنني بداخل فيلم سينمائي كل شيء حولي مهدم لا يوجد شيء يدل على الحياة في هذا المكان غير صراخ الناس وطلقات الرصاص..

لمحتُ طفلًا صغيرًا لا يتجاوز عمره الـ7 أعوام يقف على أحد خزانات المياه جسمه مغطى بالرماد تتراقص خلفه ألسنة النار الشنيعة

داخِلٌ في صدمة اللاوعي التي أفقدته الشعور بمن حوله يتمتم بكلمات حاولت قراءتها من حركة شفتيه لكني لم أستطع وكانت هناك فتاة تقف بالقرب منه تناديه "أحمد" وقفتُ أراقبه حتى سمعتُ أزيز رصاصة دوت من خلفي..

أصابني التوتر وقلقت جدًا.. هل سيكون أيمن القاتل أو المقتول؟

لكني تنفست الصعداء عندما رأيت أيمن يخرج من المنزل مسرعًا ويمرُ من جانبي.. بعد ثانيتين خرج صوت رصاصة أخرى من الداخل وخرج معها القائد والجنود

توقف القائد عند عتبة الباب وقال وهو يشير بإصبعه بشكل نصف دائري وعشوائي "من يحضر لي أجمل امرأة فسوف يلقى مني مكافأة تسُره"

ركبنا سياراتنا وقد أخذنا معنا ما يقارب العشرين امرأةً بأمرٍ من القائد كنت أعلم أننا سنصل لهذه المرحلة.. اختطافُ النساء! أين قانون الحرب وقواعده؟

أتذكر عندما كنتُ طفلًا في كل مرة تشتري لي أمي علبة ألوان كنت أرمي اللون الأبيض وعندما تسألني أمي "لماذا؟" أقول لها إنه لا فائدة منه فهو لا يلون!!

أيقنتُ الآن لماذا القلم الأبيض لا يلون، لأنه صادق لا يزيف الحقائق ولا يعطي لونًا غير لونه الحقيقي.. فالحرب هي علبة الألوان تلك فكل طرف منها يمتلك لونًا الا اللون الأبيض فلا يمتلكه أحد

أتى الليلُ المهيب وقد أرخي سدائله وترك أثرًا كئيبًا على النساء بعكس الجنود فقد كانت هذه الليلة أسعد وأجمل ليلة لديهم منذ أتوا إلى هُنا

أُدرك أننا في البداية كُنا مُخيَّرين إما الاستمرار وإما التراجع، لم نُجبر على أي طريق لنا. قادتنا أنفُسنا طواعية مغمضى الأعينُ إلى هُنا..

لكم أتمنى إن كان بإمكاننا معرفة إلى ماذا سيؤول كل طريق قد نسلكه؟ وما نهايته؟. رُبما كنا قد اخترنا طُرقًا أقل مرارةً وتجنبنا الأسى والألم وقتل أرواحنا.

أخذت قدحي وزجاجة الفودكا الخاصة بي وخرجتُ من مخيَّمي مستنكرًا مغتاظًا لما يحدث حولي جلستُ على صخرة كبيرة بالقرب من النهر أفكر في أمي وإخوتي..

آخر الأخبار التي وصلتني منهم أنهم خرجوا مبكرًا من مدينتنا قبل أن يصل العدو ولم يصلني أي خبر عنهم منذ ذاك الوقت! شربتُ ما بقدحي مرةً واحدةً حتى شعرتُ بصعوبة في البلع

التفتُ يمينًا ويسارًا لألمح زميلي أيمن يجلس قرب النار، فكرتُ أن ألوذ به لكني وجدته شاردًا فتراجعتُ عن فكرة الذهاب إليه

أخرجت دفتري من جيب سترتي وقلمي ودفتري كنت غائبًا عن الوعي أو أن وعيي قد غاب عني! أشرب من قدحي واملأهُ مرارًا وتكرارًا أصبحت لاشيء أصبحت ضيفًا ثقيلًا على سرير الحزن والوجع باغيًا ومباغتًا إياه..

أنهلتُ في الكتابة على دفتري مُتعطشًا للحديث مُتلهفًا لأكل السطور كالذئب الجائع الذي انقض على فريسته..

***

جلستُ تحت ضوء القمر أتأمل ألسنة النار الذهبية تتراقص أمامي ارتسمت صورتها أمامي وجعلتُ من ألسنة النار الذهبية شعرًا لها رحتُ أتذكر ملامح وجهها القوية والجادة، شخصيتها القيادية والحازمة

وسُرعان ما تختفي تلك الشخصية عندما نجلس معًا تصبح ذات ملامح هادئة وناعمة تُصبح ذات شخصية مرحة عفوية كطفلة أطلت توها على الحياة، أحببتها لأنها مُختلفة عن اللاتي رأيتهن وتعرفت عليهن..

أتى ببالي أول لقاء لنا فأنا أذكره بكل تفاصيله، أذكر أول ابتسامة لك، أول جُملة جمعتنا، ما لون فستانك، حذائك، أذكر حتى عقدكِ ذى الخرز الأسود الذي تتوسطه الماسة الصغيرة

حتى ذلك الجرح الموجود على خدك أتذكره، كان جرحًا فلمَ أذكره!
كيف لي أن أتذكر تفاصيلك الصغيرة هكذا؟ لقد سلبتِ عقلي وأسرتِ قلبي وخطفتِ أنفاسي..

أخرجت من جيبي ورقة مُهترئة من كثرة استخدامها كانت آخر رسالَة من حبيبتي تخبرني عن أحوالها وأحوال مدينتنا

تخطيتُ الكلام غير المهم الذي حفظته من كثرة قراءته وتوقفت أتمعن وأقرأ للمرة الألف حديثها الموجه لي فأشعُر بكلماتها تقرُع بابي ليزهُر قلبي وتنتعش رُوحي

كان بمثابة المسامير التي تُثبِّت روحي بجسدي المُتعب وكيف لي أن أشقى وأن أرتخي وأنا لديَّ هذه المواساة البشرية وأنا أمتلك بُستانا من الحُب الذي يزين روحي..

"اشتقتُ إليك كثيرًا هل تعلم بذلك؟ لم يمُر على غيابك سوى شهر ولكني اشتقت لك وأنتظرعودتك بفارغ الصبر أشعرُ بأن قلبي فاض ويفيض كُل يوم بحبه لك.. أشعُرُ بأنني لن أستطيع وهب أحدهم ولو جزءًا ضئيلًا من الحب الذي أكُنهُ لك يا عزيزي أُحبك حبًا أبديًا. وتذكَّر بأني سأبقى أنتظرك حتى يُقام العزاء على جسدي"

ابتسمتُ مرارًا وتكرارًا أثناء قراءتي لتلك السطور، أدخلت الورقة في جيب سُترتي ورحتُ أتذكر آخر مرة رأيتها فيها.. لقد كان وداعنا الأخير

"سأكون بخير لا تقلق علي ولا تفكر بيَّ كثيرًا. الأهم أن تعود إليَّ سالمًا"

"ماذا سيحدث لقلبي حين أشتاق إليك؟"

تراءت لي ابتسامتها التي لا تفارق ثغرها وأسنانها البيضاء المصفوفة كرسمة من رسمات مايكل أنجلو وعيناها التي لو رآها شكسبير لتغنى وكتب عنهما أعظم الكتب والسيناريوهات

تنهدتُ قائلًا "اشتقت إليك يا صفاء"

وبينما كنت أتامل صورتها التي اتخذت من النار التي أمامي مطرحًا لها راودتني أفكار غريبة سيئة لها فأبعدتها فورًا قبل أن تنتصر عليَّ لكن ألسنة النار الجامحة التهمت صورة حبيبتي بينما تشكَّل مكانها صورة الطفل! وجهه مغطى بالدماء بعد ما استقرت الرصاصة في منتصف جبهته أغمضتُ عيني محاولًا نسيان الأمر ومحوه من أمامي لكن ما إن تسنى لي التفكير في أمر آخر حتى ظهرت صورة والدة الطفل بعد أن قتلها القائد

لم تذهب صورهما من مخيلتي منذ عودتنا أصبحتُ أطردُ النوم خوفًا من أن يلحقا بي في منامي..

أنظُر إلى النار محاولًا أن أعيد صورة حبيبتي أمامي. لكني لم أستطع. وما أزعجني أيضًا عندما بدأت قطرات من المطر تتساقط مُطفئة ألسنة النار الهائجة..

وقفتُ رافعًا وجهي مُغمضًا عينيَّ أتحسس كل قطرة تمُسُ وجهي محاولًا استشعار برودة قطرات المطر لعلها تطفئ ذلك الحريق الذي بداخلي..

***

"ها قد هطلت السماء علينا غضبًا" هكذا قلت لنفسي، أدخلت دفتري داخل سترتي كي لا يبتل ووضعتُ قبعة السترة على رأسي..

زمجر الرعد وارتسم وميضُ البرق مزّيِنًا غضب السماء، لا صوت سوى صوت الرعد وصوت سقوط قطرات المطر مُخترقة سطح النهر..

وصراصير الليل الهائجة تحاول العثور على ظل شيء ما يقيها من قطرات المطر

ذهب ليجلس بجانب أيمن وانتظرا معا حتى ذهب المطر

"أتساءل دائمًا هل للنجوم حلقات مُتصلة؟ هل هي قريبة من بعضها كما تراها أبصارنا؟"

"لا أعتقد"

لم يدعه يُكمل كلامه حتى قال

"هل توجد بينها إشارات لكي تعرف بعضها البعض؟"

"لم أفهم ما تقوله"

"أعني في كل ليلة أرى اختلافًا بلونها وتوهجها، أبيض، بني، برتقالي، بنفسجي، أحمر!"

"قرأت في مجلة ما أن سبب تغير ألوانها ينتج عن تغير درجه الحرارة وأقواها........"

لم يستمع لما يقوله أيمن وظل ينظر للأعلى مُتسائلًا:

"هل النجوم وحيدة؟ أتمنى أن أصبح نجمًا وأكون وحيدًا"

"من الممكن أنها تتواصل بين بعضها البعض عن طريق الإشارات كما قُلت رُبما عن طريق التوهج مثلًا أو رُبما عن طريق إرسال بعض الإشعاعات وشفرات تفهمها بين بعضها البعض، ورُبما أنها لا تتواصل مع النجوم فقط، بل مع الكواكب أيضًا"

"أحسدها على ذلك، لا صداقات، لا محادثات قصيرة، لا هواتف لا حواسيب، لا ألياف وخطوط اتصال، لا تفكير ولا هُموم"

عم الصمت عليهما لفترة ليست بالقصيرة حتى ظنَ كُلٌ منهما أن الآخر نائم..

قطع ذلك الصمت القاتل صوت أيمن "أتُريد العودة؟"

"إلى أين؟"

"إلى منزلك وأهلك، إلى حياتك القديمة ألم تحِن؟"

"لا لا أريد العودة لقد بت أعتاد على المكان هُنا وإذا اطمأنت على أمي وإخوتي فسوف أكون سعيدًا ومُرتاحًا"

تجهم وجهه "سعيد ومُرتاح"؟! هل أنت سعيد بعذاب الضمير هذا؟. هل أنت سعيد عندما ترفع سلاحك في وجه بريء وتقتله؟"

ببرود "هذا واجبي"

"واجبُك وأنت تعلم أنك على خطأ؟! هل أنت سعيد عندما تيتم الأطفال وترمِل النساء وتقتل الرجال؟ هل أنت سعيد بسلبهم منازلهم وكل شيء يملكونه؟ هل أنت مُرتاح عندما تسلبهم أرواحهم؟ بربِك هل تنام قرير العين؟"

ارتفع صوته قليلًا وجلس أمام أيمن "وأهالينا؟ وعائلاتنا ألا يفعلون بهم بالمثل"

عاد أيمن إلى هدوئه السابق ونظر إلى القمر بعدما ابتعدت عنه السُحب التي كانت تُغطيه

"هل سمعت عن قصة حُب القمر والشمس"

لم يكُن قد هدأ غضبه بعد لكنه أمسك بهدوئه "لا، ماهي؟"

"إنها خُرافة يونانية قديمة تقول إن الشمس رأت القمر يُغازل أحدى النجوم فانهالت عليه بالضرب حتى تركت الندوب على سطحه فنذرت على نفسها بألا تجتمع معه مُطلقًا"

تفاجأ وابتسم"أول مرة أسمع بها"

"نعم، أيضًا يُقال إن حبهما لبعض كبير جدًا. ولكن بسبب النذر الذي قطعته الشمس لم يستطيعا أن يجتمعا. ولكن في كُلِ مرة يزداد اشتياقهما لبعض يأمر الله بأن يلتقيا ويجعل الخسوف"

"فلسفة وخرافات الأغريقيين كثيرة ولا تنتهي"

من أنا؟

ليست هناك طريقة مشِّرفة للقتل ولا طريقة لطيفة للتدمير..

ولا خير في الحروب إلا نهايتها

– أبراهام لنكولن

سأقصُ عليكم قصة ذلك الطفل الصغير السعيد ذى الملامح الهادئة والمُملة بالنسبة إليَّ..

حياته كانت جميلة هادئة عائلية ومُستقرة بشكل أزعجني بشدة وأغراني لكي أفسد عليه هدوءه الجميل وسعادته، فكان لا بُد أن أُدخل نفسي ولمساتي الخاصة على حياته وأجد طريقة لأُشتته.. فقد أبغضني هذا الطفل كثيرًا. وقد تأكدتُ لي أن عليَّ التدخُل في حياته سريعًا..

وهاقد استطعت فِعل ما أفعله من الكثير بهذا الطفل الصغير الذي تحول إلى شاب مُنكسر

ها هوَ ذا جالس على كرسيه الهزاز في حديقته الصغيرة بجانبه طاولة وضع عليها جهازه المحمُول وكوبًا من القهوة قد نسيه فقد كانت تطفو خنفساء على سطحه..

يحمل بين يديه كتابًا ما، يقرأ بتمعن وتركيز شديدين مُبحرًا بين كلماته أو هذا ما قد بدا لي..

بعد مرور وقت ليس بالقصير أغلق الكتاب ووضعه على طاولته، أخذ جهازه المحمول وفتح برنامج أغانيه المُفضلة، قام بتشغيل أول أغنية في قائمته فتقافزت الأفكار إلى عقله وهو ينظر إلى السماء المخملية التي يشقها بعض السفن البيضاء وبعض الأشكال قد رسمها في مُخيلته..

أغمض عينيه بقوة يملأ رئتيه ببعض الهواء المنعش وقد منحه هذا شعورًا رائعًا، أفرج عن عينيه مُحدقًا بالسماء فتمتم "الحمدلله"

رنة الهاتف سحبته من شروده انتفض من مكانه ليقطع سلسلة أفكاره المشوشة. أخذ الهاتف ورأى المُتصل وقال بنفسه "إنه دقيق جدًا في المواعيد"

أتى الصوت من المُتصل "أهلًا أحمد كيف حالك اليوم؟ هل يوجد أي تطور"

"لا مثلما أخبرتُك أمس هنالك أشياء بعقلي لكني لا أستطيع ترتيبها ونسجها"

"هل نظرت إلى الصور؟"

"نعم نظرتُ"

"إذن! ألم تتذكر شيئًا ولو القليل"؟

"كُلما أنظر إلى الصُّور أظل أكرر الأسماء في عقلي لعلي أتذكرهم، أنظُر إلى صورتي وأنا صغير لكنِ لا أستطيع تذكُر حتى نفسي!"

"حسنًا إذن يا أحمد أُريد أن أراك غدًا، هل هذا مُناسب لك؟".

أومأ برأسه وكأنه يراه "نعم، أراك غدًا إذن"

أغلق سماعة الهاتف وهمَّ بالوقوف لولا الدوار الذي شعر به فجعله يجلس مُجبرًا، حاول أن يُمسك بذراعي الكُرسي للوقوف بهدوء واستعادة توازنه.. واستعاده بالفعل

توجه إلى غرفته وجلس على السرير أمام الصور المُبعثرة أمسك بصورة كانَ يُوجد بها خمسة أشخاص.. طفل صغير يجلس في المُنتصف على يمينه يجلس والداه وعلى يساره شيخ كبير في السن ألا وهو جده وبجانبه أخته ذات الستة أعوام..

نظرَ إلى هيئته في تلك الصورة لكنه لم يجد أنه يشبه ذلك الطفل الصغير، مررَ أصابعه على لحيته بشكل عشوائي وكأنه يتحسسها لأول مرة ونظر إلى شعر الطفل الصغير في الصورة حاول أن يُقارنه بشعره الحالي تمتم "ذلك الصغير سعيد ويبتسم. أما أنا فقد نسيتُ طريقة الابتسام"

رمى الصورة التي كانت بيديه مع بقية الصُور

أخذ وسادته من تحت اللحاف ووضعها أسفل رأسه وتكور حولَ نفسِه

أما أنا فنظرتُ إلى ذلك الشاب المُنكسر العاجز الضعيف المُنهزم المُمل والحزين بابتسامة كبيرة

هل علمتم الآن من أنا؟ ليس بعد أليس كذلك؟ حسنًا إذن فسوف ألمحِّ لكم قليلًا

لا يعرفني جميعكم إلا قلة من الأشخاص، أشخاص عاصروني، عاصروا قهري وطُغياني الشديد، عاصروا ظُلمي وتجبُري المُرير، حتى أصبحتُ بصمة في ذاكرتهم وفي حياتهم وبؤسهم..

البعضُ منكم من الممكن أنهم قد عرفوني والبعض لا، أنا يا قُرائي من تتهافت القنوات الفضائية والمواقع الإخبارية لمعرفة آخر أخباري ومُستجداتي

ما مهمتي؟ ما وظيفتي؟ ليست بالشيء الصعب سوى أن أُيتم الأطفال، أُرمّل النِساء، أسلُب روحَ الرِجال وأبيد العائلات، وبسببي يعُاني الصغار والكبار.. فقلة هُم من يعرفونني شخصيًا

أما الذين رأوني عبر شاشات التلفاز وقرأوا عني في المواقع الإخبارية والصُحف فهُم كُثر

إذن فهل عرفتموني أم لا؟ أنا من أهدم بيتًا وأنشرُ مرضًا، أنا ملك الظُلمِ والطُغيان، أنا من أجعل قومين يتعاركان

من أنا؟ أقولها بكُلِ فخر أنا الطاعون يا أعزائي أنا الحرب

***

"انتظر هُنا الطبيب فسوف يأتيك بعد قليل"

جلستُ على كُرسي المرضى قائلًا للمُمرضة "حسنًا أنا في انتظاره"

نظرتُ إلى أرجاء الغُرفة وكأنني أراها لأول مرة، بعد دقائق معدودة دخل طبيبي بابتسامة لطيفة مرسومة على وجنتيه فقد كان صاحب وجهٍ بشوش

"أهلًا أحمد"

أومأتُ رأسي مُرحبًا بِه

أخذ قلمهُ ودفتره المُعتاد وجلس على الكرسي الذي بجانبي "إذن فهل هنالك شيء جديد أم نسترجع ما تحدثنا عنه في آخر جلسة"

هززتُ كتفي بلامبالاة "لا أعلم لا يوجد شيء جديد أريد التحدث عنه، سأسألك هل قُمت بتغيير في مكتبك؟"

نظر إلى أرجاء الغرفة "تغيير؟ لا لم أقم بأي تغيير فيها منذ أن دخلتها" وارتسمت شبه ابتسامة على وجهه

"يبدو أنني لم أُركز من قبل على ديكور غُرفتك"

"لا ليس كذلك فأنت تسألني هذا السؤال نفسه في كُل مرة تقوم فيها بزيارتي"

يقشعر جسدي فنظرتُ إليه بنظرة مُريبة "ماذا؟"

تدارك الوضع قائلًا "دعنا نعود إلى موضوعنا الأساسي..أخبرني هل يراودك نفس الحُلم مجددًا"

"نعم ما زال يراودني كل ليلة"

"إذن فأنا أستمع إليك، اسرده لي"

"لماذا أسردهُ عليك وأنت تعلم ماهو جيدًا رُبما أفضل مني أيضًا ففي كل مرة أزورك تجعلني أسرده مِرارًا وتِكرارًا!"

نظرَ إليَّ مُطولًا بنظرات جامدة "هيا فلتبدأ"

انصعتُ لأوامره كالعادة وبدأت أسردُ حلمي عن ظهر غيب.."نفس المشهد في كُل مرة..صوت أزيز الطائرات والمتفجرات، هلع الناس وصراخهم، الركام من حولي وقفتُ أمام شيء مُرتفع لا أعلم ماهو بالضبط في كل ليلة أقول إنني سأنتبه على الشيء الذي أقف عليه. لكن الوقت لا يسعفني، أقف على شيء مُرتفع أرى جنديًا يقف أمام المنزل المُقابل ينظُر إليَّ وأنظرُ إليه

تراءت لي ابتسامة ارتسمت على وجه الجُندي، تذكرتُ والدي حينها في آخر مرة رأيته فيها كان يلبس الملابس العسكرية أيضًا، تهيأ لي أنه ولرُبما يعرفه فذهبتُ أناديه وأشير إليه بيدي عله يعاود النظر إليَّ، قطع علي صوتي صوت أنثوي ينادي باسمي، استمر هذا الصوت في النداء وأنا مُتسمر مكاني حتى تحول كل شيء حولي إلى اللون القاتم ولم أعد أستطيع رؤية شيء.."

تنحنح الطبيب "أكُنت تشعر أو تعلم بالحلم أن أباك ميت"

"لا أعلم، لكني أعلم أنه مات قبل خمسة أشهر من الحادثة"

"هل تذكرت أيًا من أيامك التي عشتها في الجمعية!"

هززتُ رأسي للجهتين نافيًا كلامه وتعدلت في جلستي وأنا أسأله "كيف علمت أنني عشتُ في جمعية وأنا لا أتذكر ذلك؟ وبدوري لم أقم بإخبارك!"

ابتسم وهو يقول "تستطيع القول بأنها مصادري الخاصة"

أردف القول "انظر يا أحمد ما تمرُ به هو ما يسمى "بالنوستالجيا" وهو مصطلح يوناني "نوستد" معناها الحنين أو الرجوع إلى المنشأ

و"الجيا" تعني الألم والوجع، وهي حالة عاطفية أو مصطلح نستخدمه لوصف الحنين إلى الماضي أو عملية يقوم بها عقلنا الباطني باسترجاع مشاعر ولحظات سعيدة من الذاكرة. لكن في حالتك هذه مشاعرك وعقلك لا يسترجعان الذكريات السعيدة بل العكس.."

***

عدتُ إلى المنزل وأنا أفكر في حديث الطبيب عن حالتي المسماة بالنوستالجيا، هل من المعقول ألا يوجد علاج لهذا المرض؟. هل يُحكم على أحلامي ومخاوفي بأن تلازمني طوال عُمري؟

لقد مر أكثر من أربع عشرة سنة ولم أستطع تذكر عائلتي لم أستطع استرجاع ذكرى سعيدة لهم، إن آخر ما اتذكره وقوفي هناك وذلك الجُندي..

أشعرُ بسلسلة صدئة تلتفُ حول روحي فتسلبها أنفاسها الأخيرة وتُغرقها بصرخاتها ومحاولات استنجادها الضعيفة

وضعتُ رأسي على الوسادة لأغرق في نوم عميق بسبب التعب لكن أَنى للتعب أن يسرقني من كوابيسي..

"لقد كان يركض دون وجهة محددة، رغبته في النجاة كانت دافعه الوحيد، ظل يبحث عن مكان يؤول إليه. مكان آمن يحميه من شرور الأعداء

يلتفت إلى الوراء بين الفينة والأخرى لعله نجح في الإفلات، لعل العدو تعب من اللحاق به وانقلب على عقبيه. ولكن ما للعلل أن تُغير الحقيقة؟. ففي كل مرة كان يجر خلفه أذيال خيبته مكملًا الركض، كلما تقدم به الوقت تباطأ وقلت قوته وتضاءلت فرصة نجاته..

أصاب الخدر ساقيه لوهلة وقرر التوقف قليلًا خلف شجرة ما، وما أن استند إلى جذع الشجرة حتى سمع صوت بكاء امرأة اقترب قليلًا من مصدر الصوت فرأى وجهها وماهي إلا ثوان استغرقها لكي يُميز ذلك الوجه حتى نطق "أُماه!"

اقترب منها وعانقها بقوة، عانقته هي أيضًا حتى اعتلى صوت بكائها ونحيبها "أين كنتَ يا أحمد" كانا يعانقان بعضًا بقوة فقد تهيأ له أنهما قد طردا

ذرة الهواء الأخيرة التي قد تحُول بينهما، راودهُ شعور بالراحة وكأن هذا الحضن هو قطعة البازل الأخيرة التي كانت تنقصهُ

ابتعد قليلًا عن أمه واحتضن وجهها براحتي يديه، الذي فقد رونقه بسبب الفزع المميت الذي احتل قسمات وجهها حتى انتبه إلى أن راحتي يديه لم تحتضن وجه أمه بالكامل فقد كانت صغيرة..

بنبرة حزينة همس أحمد "هل تبكين يا أمي؟" انتظر ردها طويلًا وقد نال من القلق ما يكفيه وهو يستمع لشهقاتها المكتومة..

أجابته بصوت متحشرج وهي تحاول إخماد طوفان الدموع "أنا لا أبكي يا أحمد" هي لم تكن تكذب فهي لم تكن تبكي. بل تحاول إخماد الحريق المشتعل بداخلها..

قطعَ عليهما صوتٌ أتي من خلفهما "أنت!" حتى دب الهلع في قلوبهم فور سماعهم للصوت المُخيف الذي مرَ على أُذنيهما كسيمفونية سوداء..ذلك الصوت لم يقطع الحميمية من الأم وولدها. بل قطع حُلم أحمد أيضًا..

***

مشيتُ في شوارعِ المدينة الصاخبة التي ما عاد يخترقني ضجيجها

اعتدتُ على هذا الأمر فأنا أعلم أن هذه الأحلام أصبحت جزءًا لا يتجزأ من يومي، في كل مرة تراودني أحلامي هذه تستنزف طاقتي وقوتي فأشعر بأنني أتلقى صفعة قوية على وجهي، لكن الأمر أصبح لا يُطاق.. الحياة ما عادت تنظر إلي وتبتسم لي..

أيامي أصبحت مملة ورتيبة بشكل لا سوداوي، أصبحتُ مجردًا عن الناس وحيدًا بعيدًا عنهم رغم تقارب المسافة بيننا..

فمعرفتنا بوجود أشخاص حولنا ليست مهمة بقدر استشعارنا لهذه الحقيقة، توقفت عندما رأيتُ جحرًا صغيرًا في الجدار الذي بجانبي تندفع إليه عائلة من الجرذان..

هل قلُت عائلة؟. أقول هذه الكلمة وأنا أرتجف حتى أخمص قدمي..

أتمنى أن يوقظني أحد ويخبرني بأن هذا مجرد كابوس وقد أيقظني منه، أو أنا مُشارك في فيلم رعب وسينتهي بعد ساعتين أو أكثر، أو حتى إنه مقلب من أصدقائي وعائلتي..

لكن الوضع لم يدم ساعات ولا أيامًا استمر سنوات! أيعقل أن محض كابوس أو فيلم تافه يستمر سنوات؟ أو عمرًا؟ أو حياة؟

هذه هي حقيقتي شئتُ أم أبيتُ ينبغي عليَّ التعايش معها رغم مرارتها وبشاعتها مابين ليلة وليلة تعاود نفسي للحياة. ومن ثم تموت يا نفسي ويا ذاكرتي القديمة. هل لي بالتحدث معك لدقيقة؟. أو حتى ثانية واحدة؟

أشعر بأني كطفلٍ خبأ لعبته بحرص في مكان لا يعرفه أحد سواه فذهب لينام مطمئنًا، بعمق وعند استيقاظه؟.

وجد أن المكان قد احترق، ذهب للبحث عن لعبته فوجدها قد أصبحت رمادًا، فضحكَ وبرِد ونام واستيقظ فارغًا من الشعور

أنا كطفلٍ تُرك وحيدًا بين فواجع الحياة ومرارتها..

تبددت مخاوفي عندما رأيتُ وجهًا كنتُ أعرفه، ليس معرفة قريبة بل رؤيتي له جعلتني أشعر بأنني تذكرتُ الكثير وما أخافني كثيرًا هو أنه عندما رآني أنظُر إليه ابتسم لي وأومأ برأسه

اقتربتُ منه سائلًا "مرحبًا، أنا أعرفك أنت مصطفى.."

سكتُ عندما احتضنني "نعم أنا مُصطفى وأخيرًا يا أحمد تذكرتني"

ابتعدتُ عنه لأنظر إلى وجهه

"آتي دومًا إلى هُنا لعلك تلمحني وتتذكرني"

شعرتُ بدوارٍ وبألم يضغط على رأسي بقوة، أمسك بي وأجلسني على كُرسي قريب

قلتُ له مُستغربًا ومُعاتبًا "لماذا لم تأت إليَّ"

"اتصلوا بي من المستشفى عندما وقعت الحادثة وأتيتُ إليك بعدما استفقت لكنك أنكرت معرفتي واستشطت غضبًا فعلمتُ بعد ذلك أنك أُصبتَ بفقدان للذاكرة فنصحني الطبيب بالابتعاد عنك حتى تتذكرني بإرادتك وألا أتُعبك"

قفزت لاحتضانه، شعرتُ بأن جُزءًا من روحي قد عاد وقريبًا ستعُود كُليًا

جلسنا أنا ومصطفى معًا نتحادث، يقص عليَّ القصص ويحاول تذكيري بما مضى..

"أين هي أختي الآن؟ هل أتت عندي عندما كنت بالمستشفى وطردتها مثلما فعلتُ معك؟"

طأطأ رأسه "لا يا أحمد، وداد تم تبنيها بعد ستة أشهر من دخولنا إلى الجمعية ولم نعرف عنها شيئًا بعد ذلك"

استشطتُ غضبًا "ما..ماذا تقول أنت! لماذا لم أبحث عنها"

"اهدأ يا أحمد لقد بحثنا عنها ومن أخبرك بأننا لم نبحث. لكن العائلة التي تبنتها غيرت عنوانها، ووقتها لم نكن نمتلك إقامات شرعية فلم تُسجل معلومات عنها!"

هروب

أستيقظ كل يوم مُبكرًا بعد نحو الساعة أو نصف الساعة من نومي، جهزتُ لي كوبًا كبيرًا من قهوتي المُرة وخرجتُ بعدها من المنزل وأنا مُستمتعة بنسمات الصباح المُفعمة بالحُب والطاقة

أتامل ولادة الشمس من جديد وانعكاس ملامحها على ماء البحر الأزرق الذي يشعرني بأن الحرية أمامي بعكس ما أنا عليه

أخذتُ شهيقًا عميقًا وأنا أتساءل منذ متى وما سبب هذه العتمة التي بداخلي؟. ليتني أستطيع إدخال بعض من ضوء الشمس إلى داخلي

اجتمعت فتيات القرية كالعادة في منزلي، سأعرِّفكم بنفسي أولًا أنا أسرار ذات التسعة أنهيت دراستي الثانوية للتو

جيدة جدًا في الأدب العربي والكتابة الأدبية. لذلك اقترحت عليَّ فتيات قريتي أن أعلمهن ما أستطيع فبدأت ببعض الدروس التي أقيمها في منزلي مرة واحدة أسبوعيًا

قلت لهُن "يحتاج كل كاتب إلى مُخيِّلة واسعة دعونا ننعش مُخيِّلتنا قليلًا مثلًا دعونا نستعين بالقصص المشهورة مثل سندريلا أو سنووايت فتمارين كهذه تنمي قدراتنا الخيالية، هيا من منكن ستبدأ"

نظرت الفتيات إلى بعضهن البعض ينتظرن كي تبدأ إحداهن

ابتسمت أسرار "حسنًا أنا من ستبدأ، قصة سنووايت مثلًا ماذا لو أعطت زوجة الأب الشريرة التفاحة لسنووايت، وأخذت منها قضمة وجعلت سنووايت تأكل منها..ولكن بعد فوات الأوان اكتشفت زوجة الأب أن سنووايت أكلت من الجانب غير المسموم وبهذا فقد أكلت زوجة الأب الجزء المسموم"

صرخت فتاة متحمسة "هذا رائع حقًا"

أتى صوت آخر "لقد تحمست جدًا وفهمت الآن ما تقصدين، سأتحدث عن قصة ليلى والذئب. ماذا لو لم تكن ليلى فتاة لطيفة كما نتوقع فقد كانت فتاة جميلة ومميزة

إلا أنها متعالية جدًا فلا تقبل اللعب مع الآخرين والتحدث معهم ومغرورة بردائها الأحمر الأنيق الذي أحضرته إليها جدتها من المدينة

ففي كل يوم تذهب إلى الغابة تلعب وحدها وتجمع الزهور في سلة وانتبهت وهي تجمع الزهور أنها لم تجد قط زهرة بيضاء فقررت أن تبحث عن تلك الزهرة البيضاء. هي غافلة عن ذلك الشيء الذي يراقبها ويتتبعها كل يوم، فقررت التعمق في الغابة للبحث عن زهرتها حتى لمحت أعينًا خلف إحدى الأشجار فانتبه ذلك الشيء أنها رأته فظهر فجأة أمامها

فصرخت ليلى وقفزت عليه وهي تضربه بسلتها وصفعته وابتعدت عنه وهي تشتمه دون أن تنتبه أنه يحمل في يده تلك الزهرة البيضاء التي تبحث عنها.

أما ذلك الذئب المسكين فقد وضع يده على جبينه وبدأ سيل من الدموع في الانهمار لشعوره بحرارة الصفعة بينما عادت ليلى إلى المنزل سعيدة

بما جمعت من الزهور لكي تصنع لأمها طوقًا من الورد لمحت إعلانًا نُشر كانت هناك صورة رجل ضخم ذى عضلات يحمل فأسًا

هناك أيضًا كُتبَ كلام تحت الصورة لكنها لم تهتم وابتعدت عائدة إلى المنزل

عندما دخلت المنزل تفاجأت عند عتبة المنزل بعصير لونه أحمر انتبهت لخطواتها وهي تمشي لكي لا تطأ رجلها على العصير وهي تردد "أمي..أمي أين أنتي"

لاحظت أن العصير ذا اللون الأحمر يأتي من غرفة والدتها فتحت الباب وهي تقول "أمي هل أرقتي العصير؟"

حتى شعرت بوخزة عندما رأت ذلك الرجل الذي رأته بالإعلان يلتفت وهو يمسك عنق أمها والعصير الأحمر يملأ فمه وفأسه لتصرخ ليلى والخوف قد اعتراها.

وما زادها خوفًا عندما ترك الرجل عنق أمها واتجه نحوها فبدأت تركض ولكن خطواتها الصغيرة لم تكن أسرع من خطواته خرجت من المنزل.

وها قد أمسك بطرف ردائها وسقطت على العشب الأخضر وهي تصرخ "ابتعد عني" انقض عليها وبدأ في تمزيق ملابسها وتوقفت ليلى عن مقاومتها الضعيفة لينهض عنها فجأة ويتركها.

تفاجأت ليلى مما يحدث فرأت الذئب متشبثًا بظهر الرجل وقد أصابه بالعديد من الجروح.

أخذت ليلى الفأس ورمته إلى الذئب وهي تصرخ به "اقتله اقتله أيها الذئب"

دقائق معدودة حتى توقف الرجل عن المقاومة بعد أن غرس الذئب الفأس في عنقه مُعلنًا موت الرجل"

صفقت الفتيات وهن يرددن "أحسنتِ قصة رائعة ونهاية جميلة"

نظرت أسرار إلى الفتيات "هل من مخيّلة واسعة أخرى؟"

نطقت فتاة "ربما كانت سندريلا فتاة قبيحة جدًا وطلبت من الساحرة أن تستخدم سحرها عليها وتجعلها جميلة حتى منتصف الليل لكي تقابل الأمير وتحقق أمنيتها وتعود إلى حالتها الطبيعية، وعندما يذهب الأمير للبحث عن صاحبة الحذاء ويكتشف أن سندريلا هي صاحبته لن يقبل أن يتزوجها لقبحها الشديد.."

***

أرخى الليل سدائله واختفى القرص الأصفر في أعماق السماء، ليأخذ القمر مكانه فتغدو السماء صافية ملبدة بالسحب..

هذه الليلة كانت مُخيفة ومُرعبة لأهالي قريتنا. فقد كان صوت الدبابات والجنود في القرية المجاورة وهذا يعني أننا سنكون المحطة التالية لهم..

مصابيح المنزل تتوهج تارة وتنطفئ تارة أخرى منذرة بانطفائها وهذا لا يسُر أبدًا

فأنا في المنزل وحيدة، لا يوجد أحد من أفراد عائلتي فقد ذهبوا إلى المدينة لزيارة أهلنا ولم أذهب معهم.

أغلقتُ الباب والنوافذ بإحكام وتوجهتُ إلى غرفتي للنوم..

لم أغف إلا دقائق معدودة حتى استيقظتُ مرعوبة على صوت إطلاق نار كثيف في الخارج، انتظرت لبُرهة في سريري قبل أن أنهض حتى سمعت الأصوات بدأت تزداد وتعلو أكثر

وفي كل مرة تقترب هذه الأصوات تعلو دقات قلبي معها، وزادت نبضات قلبي حينما أدركت انقطاع التيار الكهربائي..

استقررت على سريري متكورة أردد ما حفظتُ من آيات الله، حتى سمعتُ صوت دقات الباب التي نفضت سكوني..

أخذت الشمعة التي وضعتها بجانب رأسي وهرعتُ لأرى من يوجد فإذا بهي صديقتي وجارتي مروة كانت قد أرسلتها أمها للمكوث معي وطمأنتي..

"الحمدلله أنك أتيت، إني خائفة كثيرًا"

ابتسمت مروة وهي تردد "لا تقلقي فقد أخبرنا والدي بأنهم لن يأذوا قريتنا فهناك اتفاق بينهم وبين شيخ القرية"

زفرت بضيق "إذن فما سبب أصوات طلقات النار والدبابات؟"

"نظنُ أنهم يبحثون عن شخص ما"

"شخص ما، من؟"

"لا أعلم لكن سنعلم قريبًا عندما يمسكونه"

تنفستُ الصعداء ودعوتها إلى الداخل "هيا دعينا نجلس في غرفتي، لا أشعر بالأمان هنا قرب الباب"

جهزتُ لها مكانًا مُلائمًا للنوم، فلم يمر وقت طويل حتى علا صوت شخيرها وعلمتُ أنها غطت في النوم..

ظللتُ أنظر إلى سقف غرفتي شاردة الذهن حتى بدأ جفناي يتثاقلان، لأسمع صوت ارتطام قوي في الأعلى شعرتُ وكأن هنالك شيئًا ما سيقع على رأسي..

انتفضتُ من مكاني واضعة يدي على قلبي بتوجس مترقبة شيئًا ما.

حتى بدأت أسمع صوت شيء ما يشبه الخطوات..لا لايشبه بل بالفعل هذا صوت خطوات تُطرق أرضيتنا الخشبية..

قفزتُ من سريري أوقظ مروة "مروة استيقظي..مروة"

نَظرت إليَّ بنصف عين مُقفلة "ماذا هناك؟"

قلت لها بصوت خافت خشية أن يسمعنا من يوجد في الداخل "هنالك شخص ما هُنا"

لم أستطع إكمال جُملتي حتى هرعت وزعقت بصوت عال "يا إلهي ماذا سنفعل"

"حسنًا اهدئي قليلًا واخفضي صوتك لكيلا يسمعنا"

أخذت الشمعة وتوجهنا أنا ومروة إلى باب الغُرفة التفتُ إلى مروة ورأيتها حاملة قطعة خشبية كانت مركونة خلف الباب فتحتُ بهدوء لكي لا يصدر صرير..

فما إن خطوت خطوتين خارج غُرفتي حتى سمعت أنين شخص يتألم، همستُ إلى مروة "الصوت أتي من الدرج في الأعلى"

توجهنا ببطء وحذر شديدين ناحية الصوت..نظرت من خلف الجدار ورفعتُ الشمعة لأرى من هذا..وصعقتُ عندما رأيتُ شابًا عمره لا يتجاوز السابعة والعشرين عامًا.. همستُ "من؟"

رفع رأسه إلينا وقال سريعًا "أرجوكما لا تشيا بي أنا مُصاب"
علمتُ حينها أنهُ ذلك الجندي الهارب وأنه سبب دخول الجيش قريتنا..
صرخت مروة في وجهه "من أين أتيت يا هذا؟"
أشار إلى الأعلى وقال برجفة "السقف منخفض والباب كان مفتوحًا"
نهرته مروة "وكيف تدخل إلى المنازل هكذا من غير أن تستأذن من أصحابها!"
رفع يده عن رجله اليُمنى الممدة "ألا ترين إصابتي؟ هل يسمح لي وضعي بالاستئذان من أحد"
بقيتُ ساكنة أنظُر إلى وضعه..همستُ إليه "من أين أتيت؟"
نظر إليَّ مُفكرًا "أنا...أنا هارب من الجيش"
"أنت من جيش العدو"
أومأ برأسه بنعم
هرعت مروة صارخة "يا إلهي ماذا سنفعل أُأخبر أبي؟ أنا ذاهبة لإخباره"
أمسكت بذراعها "تمهلي يا مروة..هل هم من أصابوك؟"
"نعم أطلقوا عليَّ النار عندما هربت من القرية المجاورة ووشي بي أحد الجنود ولحقوا بي إلى هُنا"
"خذي الشمعة يا مروة واذهبي لإحضار ما تستطيعين إحضاره من الإسعافات الأولية أنتِ تعلمين أين مكانها"

اقتربت مني وهمست "مالذي تفعلينه؟ ألا تخافين منه؟ ألن يؤذينا انظري إلى سلاحه!"

"استمعي إليَّ وافعلي ما قلته لك"

أومأت برأسها وناولتها الشمعة وذهبت

تلمستُ الجدار وأنا أستنير بضوء القمر المُشع من باب السطح المفتوح، أمسكتُ بيده اليُمنى وساعدته على الوقوف وأنا أردد "هيا ساعدني على حملك"

أومأ برأسه وأسند يده اليُمنى على كتفي ويده الأخرى اتكأ بها على سلاحه..

مشينا خطوات صغيرة وأنا أتلمس الطريق حتى أوصلته إلى أقرب غُرفة، كانت غُرفة أخي، مددته على السرير وأشعلتُ شمعة ووضعتها بجانبه "هل يمكنني أن أرى إصابتك؟"

رفع ساق بنطاله إلى ركبتيه فاشمأززتُ عندما رأيتُ منظر الدماء "ستحضر مروة الإسعافات وسأرى ما بإمكاني فعله لك"

أومأ لي برأسه، كان غير قادر على الكلام وعيناه شبه مغمضتين لقد عانى هذا الشاب طويلًا ونزف كثيرًا..

حسنًا لديَّ خبرة ليست بالسيئة بالإسعافات الأولية لأنني قد تطوعت في صيف العام الماضي في مستوصف قريتنا وقد مرت علينا حالات إصابة برصاصات نار لذلك سأحاول تذكر ما كنت أفعله..

أخذتُ منه سلاحه فنظر إليَّ فطمأنته " لا تقلق سأخبئه فقط"

دخلت مروة حاملة كيسًا مليئًا بالأدوات الطبية البسيطة "هذا جميع ما وجدته ولا أظنُ أنه سيكفي"

"سأحضر وعاء ماء ساخن وبعض السكاكين والأدوات الحادة"

أفزعتني مروة قائلة "وهل ستتركيني وحدي معه؟"

"ها هو ذا السلاح معي يا مروة سأخبئه في مكان آمن وأعود سريعًا"

***

خبأتُ السلاح في غُرفتي وسخنتُ الماء وجهزت سكاكين بمقاسات مُختلفة..

مهمتي التالية هي أن أعالجه وأن أخرج الرصاصة منه

وفعلًا بدأت في العمل ويداى ترتجفان وقلبي كاد يخرج من مكانه، كانت تخرج منه آهات متقطعة تتقطع لها المشاعر يقاوم بما تبقى له من طاقة

بدأت بسؤاله محاولةً التخفيف عنه "متى أصبت؟"

قال هامسًا "قبل خمس ساعات تقريبًا"

جوابه شل حركتي لقد نزف كثيرًا لكن لا وقت لديَّ للتوقف يجب عليَّ إخراج الرصاصة وخياطة جرحه وتضميده

أشرتُ إلى مروة بأن تقترب "أريدك أن تقتربي منه وأن تخففي عنه الألم"

نظرت إليَّ بذهول "مالذي تقولينه ماذا أفعل؟"

أجبتها بنبرة أمر "افعلي ما أخبرتك إياه!! خففي عنه الألم أمسكي يده وامسحي عنه عرق جبينه هيا يا مروة لكي لا نُطيل"

لاحظتُ وأنا أحضر وأقوم بعملي أنه ثابت جدًا لا يشكو من شيء ويحاول عدم إظهار ملامح الوجع على وجهه..

انتهيتُ بعد ساعتين تقريبًا، الأمر مر طويلًا وصعبًا خصوصًا مع وجود دم كثير.."ها قد انتهيتُ" ما إن قلتُ جُملتي حتى نطقت مروة " هدأ الشاب! لا أشعر بأنفاسه أيضًا"

هرعتُ من قولها وانتفضت أرى نبضات قلبه فشعرت بها تنبض

شعرت براحة "أخفتني يا مروة إنه حي ينبض قلبه ولكن يبدو أنه قد أغمى عليه حاولي أرجوك إيقاظه لكي نتأكد أنه بخير وأنا سأغسل يدي وأغيِّر ملابسي وأعود"

اغتسلتُ سريعًا واستبدلتُ ملابسي وأنا كالمصعوقة غير مُصدقة لما حدث ولما فعلته.

عدتُ إليهما ووجدت الشاب ما زال مغمض العينين "حاولتُ إيقاظه لكنه لم يستيقظ".

ظللت صامتة وأنا أنظُر بفراغ ناحيتهُما.

"ما الذي سيحدث له يا أسرار أنا خائفة أن يصيبه مكروه، فهو قد فقد الكثير من الدماء".

أجبتها دون يقين "سيصبح بخير إن ارتاح هذه الليلة، وسنحاول تعويض الدماء الذي فقدها، يمكنك الذهاب للراحة وإذا شئتِ الاغتسال أيضًا أما أنا فسأبقى بجانبه بقية هذه الليلة".

نهضت "إذا احتجتني فيمكنك مناداتي سأذهب للنوم في غرفتك فأنا مُتعبة جدًا"

أومأت برأسي وابتسمتُ لها.

ظللت مُستيقظة تلك الليلة أحاول خفض حرارته العالية وسط آهاته وهذيانه وقد انخفضت بالفعل بعد عناء طويل من الكمّادات الباردة..

لقد استعطفتُ هذا الشاب كثيراً.. لا أعلم ماذا فعل لكي يهرُب من جيشه ومن وطنه! لكن ما أعلمه جيدًا أنني سعيدة جدًا بمساعدتي له.

عادت الكهرباء بعد صلاة الفجر وقمتُ بتنظيف المكان بهدوء محاولةً عدم إصدار أي صوت وإيقاظه

توجهتُ بعد ذلك إلى المطبخ أجهز الفطور فالشاب في حاجة إلى الطعام وتعويض الدم الذي فقده..

ذهبتُ لأوقظ مروة وجهزتُ طعام الفطور لنا وللشاب

***

بتوتر قالت "الشاب لم يستيقظ حتى الآن ولا أستطيع الذهاب إلى منزلنا وتركك بمفردك معه"

طمأنتها "اذهبي أنتِ إلى منزلكم لكي لا يشعر أحد من أهلك بشيء ويقتحمون علينا المنزل ويجدونه هنا، فسنكون في كارثة حينها"

"حسنًا لكني سأعود سريعًا لن أطيل"

"في انتظارك"

"أرجو أن يصحو قبل أن أعود إليك، أتريدين شيئًا أحضره معي؟"

احتضنتها "لا سلمتِ يا مروة أشكرك لوقفتك معي بالأمس"

قبّلتني من خدي "نحن صديقتان سأقف معك وأنتِ ستقفين معي عندما أكون بحاجة لك"

ودعتها واعدة لي بأنها ستعود قبل حلول الظلام

انصرفت أنظف البيت وما هي إلا دقائق حتى رن هاتفي كان المتُصل والدتي فزعتُ عندما رأيت اسمها أخاف أن تخبرني بأنهم عائدون..

أجبت على الهاتف "أهلًا أمي"

أتاني صوتها الحنون المعتاد "كيف حالك يا ابنتي كيف هي أحوال القرية عندك؟ سمعتُ ما حصل انتفض قلبي من مكانه خوفًا عليك"

"لا يوجد شيء يا أمي فلم يعتد الجنود على قريتنا، كانوا في القُرى المُجاورة"

"نعم أعلم ذلك لكنهم دخلوها بحثًا عن جندي خائن أصاب قائدهم، أخبريني الآن هل أنتِ بخير؟ لا تخرجي من المنزل مُطلقًا سنقضي اليوم وغدًا هنا وسنعود بعد الغد"

"أنا بخير يا أمي لكني اشتقت إليكم فقط"

"هيا يا حبيبتي لن أطيل عليك"

ودعتُ والدتي وأنا شاردة في البعيد أيُعقل أن هذا الخائن الذي تتحدث عنه أمي هو نفسه..!

لم تمض دقائق من إغلاقي للهاتف مع أمي حتى دق باب المنزل شعرتُ بكهرباء تسري في جسدي.. هل من الممكن أنهم علموا بأن الجندي موجود هنا!

قلت بتردد شديد "من الطارق"

أتاني الصوت سريعًا "أنا محمود شيخ القرية، افتحي الباب أريد التحدث معك"

توترتُ وشعرتُ بأن توتري ظهر على صوتي "لا أستطيع فتح الباب فأنت تعلم أن عائلتي ليست موجودة، أخبرني ما تريد إخباري به من خلف الباب"

" لستُ غريبًا هيا افتحي"

اشتط غضبي "قلتُ لك لا أستطيع!"

تدارك الموقف قائلًا "أحسنتِ يا أسرار كنتُ أُريد أن أخبرك، هناك شخصٌ هارب من جنود العدو ومن حُسن حظنا أن هناك قرابة بين زوجتي وبين قائد الجيش فلم يدخل إلى قريتنا وأعطيته مواليتي له دون أن يقتحم القرية، فأريدك أن تنتبهي لنفسك من هذا الجندي الطليق وإذا علمتِ أي شيء بخصوصه أخبريني أو أرسلي أحدًا لإخباري فلا أريدك أن تخرجي من المنزل"

"حسنًا"

لم أسمع أي صوت بعدها فعلمتُ أنه قد ذهب فتنفستُ الصعداء

ذهبت لكي أتفقد الشاب فلم يكن قد استيقظ بعد، بدأ الهدوء والنور يحف وجهه، ابتسمتُ ووضعت يدي على جبينه لكي أقيس حراراته. فما أن لامست يدي جبهته حتى استفاق مفزوعًا ينظر إليَّ في توجس..اعتدل في جلسته وهو يجد صعوبة في تحريك رجله المُصابة..

ابتسمتُ له "ها قد استيقظت أخيراُ. لقد أقلقتني عليك..كيف تشعر هل أنت بخير؟"

قلتُ وأنا أفتح النافذة لكي يتجدد الأكسجين بها "هل يوجد شيء ما يؤلمك؟"

"أنا بخير"

همستُ "هذا واضح طوال الليل وأنت تئن"

أرجع رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه

"ها قد أحضرتُ لك ملابس أبي لكي ترتديها عوضًا عن ملابسك المليئة بالدماء هل ستستطيع الوقوف؟"

هز رأسه بنعم، أخذت الملابس بيدي ومددت له يدي الأخرى "هيا دعني أساعدك على الوقوف"

أمسك بيدي وهمَ بالوقوف وأنا أردد "لا عليك ببطء فلتأخذ وقتك"

أوصلته إلى باب دورة المياه فقد جهزتُ له المياه الساخنة وناولته الملابس التي سيرتديها..

عدتُ إلى الغرفة التي ينام فيها وقمتُ بتغيير ملايات السرير وترتيبه وجهزتُ له الطعام..

في هذه الأثناء كان هناك رجلٌ عجوز يجلس أسفل النافذة وقد استمع للحديث الذي دار بين أسرار وشخص غريب علمَ أنه الهارب

خرج من الحمام وكنتُ أنا في انتظاره قدمتُ له الطعام وجلست على الأريكة أنتظره أن ينهي طعامه. فهناك الكثير من الأسئلة ترفرف في عقلي..

كان يأكل ببطء شديد مُتعب وجائع في نفس الوقت، فلم أستطع الصبر أكثر من ذلك وخرج السؤال من فمي سريعًا "أنت من أصبت قائدكم"

تفاجأ من سؤالي ورد بحذر "من أين تعرفين؟"

"الجميع يتحدثون عنك، لكنك أخطأت في الولوج إلى قريتنا فشيخ قريتنا بينه صلة قرابة مع قائدكم"

طأطأ رأسه إلى أسفل "قريتكم كانت أقرب قرية كان يمكنني الولوج إليها سريعًا"

"إنهم يبحثون عنك في كل مكان وأنا لا أستطيع إبقاءك هنا فعائلتي ستعود بعد غد"

ابتسم ابتسامة امتنان "أشكرك كثيرًا لمعالجتك لي وإبقائي لديك"

"كنتُ أتمنى أن أبقيك أكثر لكني لا أستطيع أخاف أن يكتشفوا مكانك وسأكون وقتها في مأزق حقيقي"

"هل يمكنك إحضار سلاحي؟"

أحضرته له وأحضرت معه شنطة ظهر وضعت بها بعض الملابس والأغذية المعلَّبة

سألته "إلى أين ستذهب الآن؟"

"لا أعلم"

طرقات قوية تطرق الباب مما جعل الخوف يتسلل إلى داخلي نظرتُ إليه فتلاقت أعيننا وشعرتُ بهُما ينطُقان بالخوف أيضًا..

"اهرُب..أهرُب"

"أيـ..أين؟"

أمسكتُ يده "تعالَ معي"

ساعدته في صعود الدرج "سنصعد إلى الأعلى..إلى سطح المنزل هناك مخزن ادخله يوجد به باب من الجهة الخلفية خلف دولاب خشبي سيُخرجك إلى سطح بيتٍ آخر حاول الهروب من هُناك"

فتحتُ باب السطح وأنا أحثه على الإسراع، مشى بخطى سريعة مُتكّئا على سلاحه حتى وصل إلى باب المخزن، التفت إليَّ وابتسم "شُكرًا لكِ"

وقبل أن يغلق باب المخزن صرخت سائلةً إياه "ما اسمك؟"

"أيمن" وأغلق الباب

هممتُ سريعًا بإغلاق بوابة السقف ونزلتُ إلى الأسفل مُسرعةً

كُسِرَ باب المنزل في تلك اللحظة..

أتى صوتي من بعيد "من أنتم؟ إلى أين؟"

توقف أمامي فحجب عني رؤيه الباب بجسده الضخم "أتأنا خبر بأنه يوجد هُنا جُندي هارب"

"لم أر أحدًا"

أمرَ الجنُود "فتشوا المنزل هيا"

لم أستوعب ما حصل فالمشاهدة واستيعابي أصبحا بطيئين ومن هنا بدأت المشاهد تسير ببطء شديد على قلبي..وأنا أدعو الله أن ينجو الشاب أيمن

بعد مرور دقائق طويلة من البحث أتى ذلك الجندي الضخم أمامي ونظرَ إليَّ نظرات أخافتني فانتبهت إلى الندبة الطويلة في خده الأيسر

"إن علمنا أو تأكدنا أن الخائن هنا فسيكون عذابك عسيرًا"

خرجوا جميعًا في خطٍ واحد وبقيت واقفة أنظُر إليهم مبتعدين فلمحت شخصًا أتي نحوهم فتوقف وتحدث مع الرجل الضخم

صررت على أسناني وأنا أشد قبضتي "ذلك العجوز الهرم"

نظرت إلى الباب المكسور وتأففت "لن يدفع ثمن تصليحه غيره"

توقف وهو ينظر إلى الجنود مكملين سيرهم خرجتُ أمشي نحوه بخطى سريعة هامسةً بكلمات بذيئة

"أحمد"

عِشتُ أنا وأُختي وداد وحيدين لا أذكُر إلى متى بالضبط ولكن استطاعت الهرب بي في ذلك اليوم المشئوم عندما دخل العدو إلى قريتنا، تنقَّلنا عبر الباصات الجماعية، بين الرُكاب خلسة وأحيان أخرى بين الأمتعة، فلم نكُن نملك شيئًا غير الملبس الذي كنا نلبسه أما بالنسبة للطعام فكنا نقضي حاجتنا من تصدُق الناس علينا وأحيانًا نضطر للسرقة من الباعة.

أما بالنسبة للنوم والمبيت فكنا ننام على أية أرضٍ مستوية، حالنا حال الكثير من الناس.

وفي إحدى المرات بينما كنا مُختبئين في الخلف بين الأمتعة شعرنا بحركة وارتطامات مُفاجئة، ففي كُلِ مرة يتوقف فيها الباص بشكل مفاجئ فظننا أنه يوجد هناك حيوانٌ ما، حتى سمعنا صرخة تذمُر عندما دهس السائق بسرعة كُبرى على مطب فتفاجأنا

سألت وداد "من هُناك؟" لكن لم يجبها أحد حتى انقضت عدة دقائق ف رأيناه ينظُر إلينا من خلف إحدى الشنط فلم تكُن تظهرُ لنا سوى عينيه.

كان ذا بشرة مائلة للسمرة وشعر أشعث كستنائي، بينما كانت ملامحه جميلة وهادئة باعثة للطمأنينة

من هُناك تعرفنا على صديق رحلتنا وحياتنا الجديد مُصطفى لقد كان خير صديقٍ وأخ فكان يكُبرني بثلاثة أعوام ويصغر أُختي بعامٍ واحد

فبفضله سافرنا إلى إحدى الدُول الأوروبية عبر الباخرة، وبسبب أننا كُنا لا نملك المال فقد عرضنا على صاحب الباخرة العمل وخدمة المُسافرين على متنها طول الأشهر الثلاثة مُقابل أن يأخذنا معه فوافق على الفور.

أما بالنسبة للطعام فكان قد وعدنا بوجبة كاملة لكُلٍ منا لكن بسبب نقص الطعام والرُكاب الكثيرين فقد كنا نجد وجبة واحدة لنا نحنُ الثلاثة وأحيانًا لا نجد شيئًا فنأكلُ ما تبقى من طعام الرُكاب هذا إذا تبقى من الأساس.

من خلال خدمتنا على متن الباخرة سمعنا القصص الجميلة والمُثيرة عن أوروبا وهذا ما زاد من حماستنا ومن أحلامنا الواسعة لكن هذه الأحلام قد تبددت فور وصولنا

فقد كانت وداد مُتعبة أثناء سفرنا وما إن وصلنا اختلف عليها الجو البارد واشتد مرضها وسعالها فلم نكُن نملك المال لشراء الدواء أو حتى الملابس الثقيلة

فكُنا نعمل أنا ومصطفى لدى رجُلٍ عربي طيب كان صانعًا للأحذية مقابل مبلغٍ زهيد وكان يسمح لنا بالنوم ليلًا في المُحل مُقابل حراستنا له.

أما وداد فكانت تبيع المناديل وأعواد الثقاب في أحيان أخرى، عندها رأتها امرأة الرجُل الذي نعمل لديه اقترحت عليها ان تبيت لديها إلى أن تتحسن صحتها وهذا ما حدث.

أما بالنسبة للطعام فكُنا نشتري كل يوم رغيفًا من الخُبز نتقاسمه ثلاثتُنا وفي يوم الجُمعة نشتري رغيفين كمكافأة لنا..

وجدنا صعوبة بالغة في أشهرنا الأولى بسبب اللغة فلم نكن نُتقن من لغتهم شيئًا، وبعد أربعة أشهر من التعلم والممارسة أجدنا لغتهم بصورة حسنة

عملنا لدى صانع الأحذية لعامٍ تقريبًا فمرض بعد ذلك واضطر لأن يُغلق محله فاإبتدت رحلة البحث عن عملٍ جديد فكان الأمر صعبًا عكس المرة الأولى. فقد توفقنا ثم أرسل لنا الله هذا الرجل الطيب.

أما الآن فماذا يُمكننا أن نفعل فنحنُ لا نملك إلا مبلغًا ليس بالكثير كنا قد ادخرناه طوال العام

استمررنا في البحث عن عمل كثير. وحتى إيجادنا للعمل سمحت لنا زوجة الرجل الطيب بالمبيت في المحل.

وفي تلك الأثناء بينما كنا نبحث عن عمل كانت أختي مستمرة في عملها في بيع بضاعتها فكنتُ أخرج يوميًا أنا ومصطفى نبحث عن عمل بينما أختي تذهب لبيع ما لديها من بضاعة..

وكما يقولون دوامُ الحال من المُحال. ففي الأيام الأخيرة كانت تعود أغلب الأحيان خالية الوفاض لم تبع شيئًا مما تحمله معها.

"ما حال عملك؟"

أجابتني بوجه ممتعض "هنالك حملة"

"حملة ماذا؟"

"حملة على الباعة الأطفال المتواجدين في الشوارع، فجمعيات حقوق الأطفال طلبت من الجميع عدم الشراء من الأطفال وبدل ذلك مساعدتهم وأخذهم إلى إحدى هذه الجمعيات لتقوم هي بعملها، فاليوم عرضت علي امرأة مساعدتي وأخذي إلى إحداها"

نطقَ مصطفى بوجه فزِع "وماذا فعلتِ"

"لم أذهب معها بالطبع"

حسنًا سأخبركم أمرًا يدور في ذهني وهو إني أشعر بانجذاب مصطفى لأختي رغم فارق السن وأنها أكبر منه

فهو دائم القلق والخوف عليها أكثر مني وأحيانا يخبرها بأنه ليس عليها الخروج للعمل فبإمكانها البقاء والمكوث في المحل. بينما أنا وهو نستطيع العمل مُبررًا أن العمل بالشارع لفتاة ليس جيدًا.

ففي يوم وقع ما خاف منه مصطفى وعلمتُ أنه على حق، تأخرت وداد كثيرًا في العودة فقلقنا عليها كثيرًا..

"أين ذهبت في هذا البرد القارس؟"

أخذ معطفه من على الكرسي الخشبي "سأخرج أبحث عنها"

"سآتي معك"

"لا لا تأتي فمن الممكن أن تعود ولا تجد أحدًا منا، من الأفضل أن تبقى هنا"

أغاظني حديثه كثيرًا فأنا خائف عليها أكثر منه أيضًا " ولكن.."

لم يدعني أكمل حديثي حتى خرج وأغلق الباب من خلفه

مر الوقت ثقيلًا عليَّ فلم أستطع فعل شيء وأنا جالس مكاني

أخرجتُ لعبة ورقية كنا نلعبها معًا وبدأت في ترتيبها حسب الأرقام من الأكبر إلى الأصغر، وعندما أنتهي من ترتيبها أعود وأخبطها وأبدأ في ترتيبها من جديد حتى ثقل جفني وغلبني النوم.

***

انتابني القلق والفزع نحو وداد وخرجتُ مُهرولًا لاهثًا إلى لا مكان وكل مكان، أركض بين الشوارع أنظر إلى الزقاق نظرات خاطفة.

توقفت أما ساحة المدينة فهي المكان المعتاد لها، أنظر لمن حولي ألتف على النافورة الكبيرة وأنظر إلى أرجائها لعلني أراها نائمة في أحد الشوارع الفرعية ولكن لا فائدة.

شعرتُ بأني لم أعد أستطيع التنفس تجمدت رئتاي وأنا ألهث في هذا البرد القارس فلم أفكر في، بل فكرت فيها كيف ستتعامل مع هذا البرد

ماذا أفعل الآن؟ إلى أين أذهب؟ أين أبحث؟ وإن عُدت دون أن أجدها فماذا أقول لأحمد؟ هل أصابها أذى ما؟ أم...أم أنهم أخذوها!

أتت في بالي تلك الحملات والجمعيات السخيفة. لكن أين سأجدهم؟ أين سأبحث؟

عدتُ إلى المحل وقد طرقتُ الباب خلفي بقوة وهناك ألف فكرة وفكرة تراودني

أدركتُ بطرقي على الباب أنني قد أفزعتُ أحمد وأفقته من نومه

بنبرة ضعيفة مليئة بالنعاس"ألم تجدها"

تهربتُ بنظري قائلًا بصوت بالكاد يُسمع "لم أجدها"

"ماذا نفعل؟"

ضربتُ الحائط بقبضة يدي "الملاعين"

اقتربَ مني هامسًا "ماذا تقصد"

اجتاحتني موجة غضب عارمة وخرجت مني كلمات بذيئة "أعتقد أنهم من أخبرتنا عنهم من قبل تلك الجمعيات المخصصة لحقوق الأطفال"

"إلى أين نذهب؟ أين سنجدها؟"

التزمتُ الصمت ثم أردف "هل نجعل الشرطة تبحث عنها"

صببتُ جمَ غضبي عليه "هل جننت؟ هل نُسلِّم أنفسنا للشرطة؟ إقامتنا هنا غير شرعية! وإن أمسكوا أو علموا بنا فسيعودون بنا إلى بلادنا"

لم نستطع فعل شيء فنحنُ "عاجزون" عن القيام بأي شيء، فقدتها وربُما فقدتها إلى الأبد من يدري قد يأتي يوم تتقاطع فيه طُرقاتنا معًا.

قبل خمس ساعات في مبنى جمعية الطفل لحفظ حقوق الأطفال..طفلة تجلس على أحد مقاعد الانتظار تلعب في ثقب قبعتها تنتظر دورها ليُسمح لها بالذهاب والعودة إلى أخيها.

تحدثت المرأة التي أخذتها من الشارع وأتت بها إلى هنا "هيا لنذهب" نطقت باللغة بالعربية، فهي عربية الأصل فما إن علمت أن هذه الطفلة عربية حتى بدأت في التحدث معها بالعربية

نطقت الطفلة"أريد أخي!"

"أين أخوكِ؟"

"في المحل أعتقد أنه نائم الآن هو وصديقنا مصطفى"

ابتسمت المرأة "أقصد هل لديك عنوانهما؟"

هزت رأسها نافيةً "لا..لا أعلم عنوانهما"

"هيا بنا الآن وأعدك بأننا سنجلب شقيقك وصديقكما"

دلفوا إلى الغرفة التي كان يتوسطها مكتب صغير تجلس خلفه امرأة يناهز عمرها الثلاثين منشغلة بأوراق ملأت مكتبها نظرت إلى وداد من فوق نظارتيها بنظرة تفحص، ثم عادت تكتب شيئًا ما على أوراقها

نطقت باللغة الأجنبية"ما اسمك؟"

"وداد عبدالله عيد"

عادت تنظر إلى وداد بتفحص وانتبهت إلى معطفها الأحمر وقبعتها السوداء "كم عمرك؟"

"تسعة أعوام..لا لا لقد أتممت العاشرة منذ شهر"

ابتسمت "هل تمكنني رؤية قبعتك يا وداد"

هزت وداد رأسها إيجابًا ووضعت قبعتها على المكتب، بينما أخذت المرأة قبعة وداد فورًا وأخرجت أصبعها من ثقب القبعة الموجود في أعلاها

نزعت نظارتيها وراحت تُقِّلب في أوراق التقويم الشهري الموجود أمامها توقفت أخيرًا بعدما استمرت في التقليب لثلاث دقائق

نظرت إلى وداد قائلةً "تاريخ اثنان شهر فبراير! قبل تسعة أشهر بالضبط!" التفتت إلى المرأة التي كانت تقف بجانب وداد "من أين أحضرتها؟"

اندهشت المرأة التي تقف بجانب وداد من سؤالها "كانت تعمل بالشارع"

وبصوت يكاد يُسمع "يا إلهي ماهذا الذي يحدث!"

تكلمت وداد بلغة شبه صحيحة "أرجوك يا سيدتي أريدك أن تُحضري أخي وصديقي إلى هنا"

نطقت المرأة التي بجانبها "لا نستطيع لأنها لا تحفظ عنوانهما"

فتحت درج مكتبها وأخرجت ورقة كانت به "أظنني أعلم"

"رائحة البارود"

يقول بول فاليري "الحرب مجزرة تدور بين أناس لا يعرفون بعضهم البعض لحساب آخرين يعرفون بعضهم البعض ولا يقتلون بعضهم البعض"

جلستُ بجانبه بينما كان مستلقيًا على بطنه "ماذا تفعل؟"

نظرَ إليّ سريعًا وعاد إلى ما كان عليه " أتدرب على التصويب"

أضاف أيضًا "لا تتحدث يا أيمن فهو يقلقني ويقطع تركيزي"

صمتُ وأنا أنظر إليه..

دقائق طويلة شردتُ فيها حتى أفاقني صوت رصاصته من شرودي

هممتُ قائلًا "اشتقتُ لهذه الرائحة"

"رائحة البارود؟"

توقف ونفض الغُبار عن ملابسه "يجب أن نستعد لإيداع أرواحنا للسماء، لإرسال كلماتنا مع رائحة البارود نحو الأعداء" وذهب.

سرحتُ وأنا أراه يمشي"لا ليست رائحة البارود، فاشتياقي إلى رائحة أمي وخطيبتي، رائحة القوة والهال غطت على رائحة البارود"

رفعتُ رأسي إلى السماء هامسًا "ياالله لم أعد أطيق هذه الحياة أكثر، ضاقت بي الحياة ذرعًا كأنني توقفتُ في مرارة حنجرة الحياة لتبصقني بعد ذلك فساعدني يا رب"

أطلقت صافرة الإنذار معلنة حدوث شيءٍ ما، فاجتمعنا واصطففنا في انتظام دقائق معدودة حتى خرج القائد فهو رجل خمسيني طويل القامة وبكرشٍ تمشي أمامه..

"لديَّ إعلان لكم، كما تعرفون تبقى لي شهر هنا ولذلك طُلبَ مني اختيار شخص منكم جدير بالمسئولية ليخلفَني

ويوجد في عقلي مُرشحون وفي خلال هذا الأسبوع سأقيِّمهم وفي نهاية الشهر القادم سأختار واحدًا ليكون هو القائد لذلك أريد منكم إثبات جدارتكم وقوتكم"

انتهى حديث القائد معنا وانصرفنا..

عُدت إلى مكان ما كنتُ أجلس فشعرتُ بضيقة تقبُض على صدري

أخرجتُ مصحفًا صغيرًا أهدتني إياه أمي منذ كنت صغيرًا، كان بمثابة روحي الأخرى فلا يفارقني أبدًا.

ولطالما بحثتُ عن القصص به لأتعايش مع قصص الأنبياء التى تجعلني أتعجب من قوتهم وصلابة شخصياتِهم

مرَ الوقتَ سريعًا عندما سمعتُ صوت الأذان "الله أكبر الله أكبر"

أحسستُ بشعور جميل نسمات الفجر مع تلاوة القرآن وقصة نبي الله يوسف.

شعرتُ بأن روحي قد صعدت للسماء السابعة، شعرتُ بالأمان مع رائحة البارود ومن كان يُصدق أن رائحة البارود السيئة قد تبعث شعورًا بالطمأنينة والأمان..

كُنا أربعة أشخاص فقط ففي كل يوم ينقص شخص أو شخصان عن الحضور للصلاة فبقينا نحنُ الأربعة مُلازمين لكل الصلوات..

سلَّمنا من الصلاة وجلستُ مكاني أستغفر حتى أحسست بشيء بارد على رأسي مسحتُه فإذا هي قطرة مطر سقطت وتلتها قطرات من الماء بشكل منتظم

"قطرة الماء إذا سقطت على الأرض ترويها وتنبتها وإذا سقطت على إنسان فهي إما تمسح ذنبه وإما تحيي له ضميره وإما تزيده جمالًا"

دخل زملائي الثلاثةَ إلى مُخيَّماتهم ليكملوا نومهم. بينما أنا جلستُ مكاني مستمتعًا بصوت قطرات المطر المُنتظم فهذا الصوت يدُبُ فيَّ الراحة والجمال، ناهيك عن منظر سقوطه وكأنه ينطق أنا رحمة مُعطاة من عند الرب الرحيم أطيلوا النظر فيّ فالجمال لا يكتمل إلا بوجود ملكوت السماوات والأرض وأيضًا الشعور بأنه سيسكُب الطمأنينة والراحة في قلوب البشر كسكب قطرات المطر.

فالمطر يمُدُني بالابتسامات العفوية يُذكِّرني بطفولتي فبمجرد سماعي لقطرات المطر أخرج من المنزل مُسرعًا وأتذكر أيضا أمي وهي تصرخُ فيَّ عندما أعود إلى المنزل وأنا مليء بالماء والطين بعد اللعب مع أولاد الحارة..

من أجمل الأشياء التي تمد الإنسان بالأمل وتبث السعادة في روحه وتلون حياته بألوان قوس قزح.. صوت المطر وصوت والدته..

ذهبتُ إلى النوم بعد شروق الشمس وقد نمتُ ليلتها بعمق.. بعمق شديد وليتني لم أفق.

فرحة الجنود بالمراسيل القادمة من أهاليهم وصراخهم كانت سببًا في أن تفيقني من النوم.

"هل هناك رسالة لي؟" قلتها بعينين شبه مغمضتين

"أعتقد ذلك، هاهي ذى"

نظرتُ إلى المُرسل فوجدته خطيبتي فابتسمت لا شعوريًا

فتحتُ رسالتها سريعًا متشوقًا ومتلهفًا فهذي الرسائل البسيطة والقصيرة هي التي تمُدني بالقوة والصبر. ففوجئتُ عندما وصلت إلى السطر الثالث فما قرأته في السطرين السابقين لم يكونا سوى تمهيد للصدمة..

"...توفيت والدتك إثر صاروخ وقع على منزلكم.." تجمعت الدموع في عينيَّ وعانقت ساقييَّ وانهمرت عيناي دموعًا كشلال يروي جزيرة مهجورة..

لم تمر تلك الأيام يسيرةً عليَّ فبعد علمي بوفاة والدتي لم أستطع تحمُل البقاء هنا أكثر فقد طلبتُ من القائد أن يسمح لي بالذهاب لجنازة والدتي وأن أعود لكنه رفض!

ورفضه هذا قد أزعجني كثيرًا فلم أطلب منه الكثير سوى يومين أذهب فيهما إلى والدتي وأعود!

فبدأت أفكر في طريق للفرار، نعم الفرار من هذا الجحيم..حتى أتى ذلك اليوم المنشُود عندما قررتُ الهروب أثناء مداهمتنا لإحدى القرى في الجبال وكانت فِكرة جيدة فلم أخبر أحدًا بما أنوي فعله.

فتوجهنا إلى وجهتنا المنشودة وانتشرنا كالكلاب المسعورة نأخذ ونهدم كل ما تراه أعيننا فابتعدتُ عنهم قليلًا وبدأت في التحرك خلف المنازل

ترددتُ كثيرًا في البداية، وشعرتُ بأن جسمي أفرز أطنانا من الإدرينالين وقلبي يكاد ينفجر من الخوف وأنفاسي متضاربة

وعندما أرى جنديًا قريبًا مني أصرخ في وجه أصحاب القرية وأبدأ بشتمهم وضربهم حتى ابتعدتُ بمسافة ليست بالبعيدة ظللتُ أركض وأتوارى عن الأنظار قدر ما أستطيع

حتى سمعت صوتًا أتى من خلفي "أيمن؟ إلى أين أنت ذاهب؟" تجمدت الدماء في عروقي وجحظت عيناي وامتقع لوني "ماذا أفعل الآن؟ هم يعلمون أنني كنت أريد المغادرة إلى مدينتي وسيتأكدون الآن أنني أريد الهرب"

التفتُ بهدوء وأنا أفكر في العذر الذي سأقوله "أنا..أنا أبحث عن...أهذا أنت؟" تنفستُ الصعداء بعدما رأيت صديقي الكاتب.

رفعَ حاجبيه "نعم أنا! ماذا تفعل؟ أين ستذهب؟"

"سأخبرك لكن عدني بألا تُخبِرَ أحدًا، سأهرُب"

"ستهرُب إلى أين؟"

"إلى مدينتي وقريتي"

"أيمن لا أستطيع تركك تذهب فسأكون أنا أيضًا مسئولًا وأخاف أن يمسكوا بك ويكون مصيرنا مثل بقية من هربوا وأمسك بهم"

قلتُ له مُطمِّئنا "لن يُمسكوا بي اطمئن"

"أيمن أنت جندي لوطنك لا ت.."

قاطعته "أعلم أنني جندي وأنا بدوري عليَّ أن أخبرك بأن الجنود لديهم ذكريات أزلية محفورة في ذاكرتهم لا يستطيعون نسيانها وأنا لا أستطيع نسيان والدتي وجميلها أريد الذهاب إلى قبرها قبل أن يجف ماؤه"

لم يرد على حديثي فلم أهتم له وأكملتُ طريقي وأنا ألتفت كل عدة دقائق لأنظر خلفي خشية من فقداهم وملاحقتهم لي.

دقائقٌ كانت حتى سمعتُ صوتًا يأتي من مكبرات الصوت "توقف...أمسكوا الهارب"

هرولتُ أبحث عن مكان للهرب فالركض والابتعاد لن يجديا نفعًا فقد يحضرون السيارات ويبدأون بملاحقتي حتى قررت الركض والابتعاد عن الأنظار واختبأتُ أسفل صخرة كبيرة.

مرَ الوقتُ عليَّ طويلًا وثقيلًا وهبت رياح شديدة البرودة وما زلت أسمع أصوات الجنود بين الحين والآخر

العودة

ومازالت الحرب تدور وتفتك بأجساد أناس أبرياء

هذه الحرب الملعونة دمرت كل شيء..

أكابر القادة متحمسون يهتفون نحن ننتصر ويهتفون الله معنا، وأنا أهمس الله ليس معكم، معكم المدفع الأكبر والأقوى معكم العدة والعتاد فالنصر للمدفع الأقوى..

الحرب دمرت ذاكرتي وذكرياتي أضعتُ ذاتي وكسبتُ حُب القادة والرؤساء.

وقفَ في منتصف شارع طويل لم يعرفه في البداية فكل شيء به قد تغير وتدمر.

الجو بارد وهادئ مليء بالسكون بعد ليلة كان لا يسمع فيها غير دوي المدافع والقنابل.

السماء ملبَّدة بالغيوم السوداء والجو مشبَّع بالدخان الذي غطى ما فعلته الليالي السابقة من الدمار والفوضى

فعلى جانبي الشارعِ المباني والمنازل مدمرة بالكامل، بجانبها السيارات التي ما زالت تشتعل جراء معركة الليلة الماضية..

على بعد أمتار قليلة خلف بقايا دبابة كان يقبع جنديان مقتولان منذ بضعة أيام

أحدهما أصيب برصاصة قناص استقرت على جبينه كان مازال مُستلقيًا على سلاحه وكأنه ما زال يرمي

أما الجندي الآخر فقد قنص بثلاث رصاصات في صدره فكان مستلقيًا على ظهره وما زالت بندقيته بين يديه

بعد ما رأته عيناي شعرتُ وكأن الألم وجد مرساه أخيرًا ليستقر بي مسحتُ دمعة سقطت من مقلتيَّ وتقدمت بخطوات عرجاء أمشي بين الركام والحطام..

تجولتُ في الشارع الفرعي الأول توقفتُ بجانب مخبز شيخ حارتنا حسبتهُ مُقفلًا إلى أن خرج محمود أصغر أحفاد الشيخ يركض من الداخل وأمه لحقته قائلة "لا تتأخر يا محمود عُد سريعًا"

بجانب المخبز يرسو مكتب العقارات لصاحبه عمي سعيد فتذكرتُ حديث أمي في طفولتي كُلما مررنا من جانبه كانت تقول "من يرغب في الشراء؟ وأين في حارتنا هذه المنسية"؟! وتقهقه ضاحكةً

يسمعها صاحب المكتب ويخرجُ من مكتبه فرحًا يبشرها "غدًا..يأتي الفرج لحارتنا فغدًا سيأتي العمال المُكلفون بإصلاح أنابيب المياه"

أكملت أمي قهقتها وهي تُحرك يديها يمينًا ويسارًا "من هذا الذي سيتكبد عناء الحضور وإنفاق المال على هذا الحي العفن ليصلح المياه والمجاري إلى فقراء لا يُشكِّل موتهم أو جوعهم أي فرق لديهم! إنهم يريدون التخلص منا يا أخي فنحنُ لا نشكِّل لهم أية أهمية"

مضى أسبوع على حضور العُمال لإلقاء نظرة على أنابيب المياه والمجاري فكتبوا بعض الملاحظات ومضوا وهم يتوعدون عمي سعيد وشيخ الحارة بحل هذه المشاكل خلال يومين..

فلم يفعلوا شيئًا كالعادة ولم يحضروا في اليوم الذي يليه ومضت الأسابيع والسنون وقد أصبحت المجاري المتفجرة معلمًا من معالم حارتنا المنسية..

بجانب إحدى البنايات توقفتُ أنظُر إلى فتاة مُراهقة تنظر إلى إحدى الجُثث يرتجف جسمها بالكامل وعيناها مستقرتان نحو وجه الجثة التي أمامها ومازالت البندقيتان ترفضان الانغلاق بسبب تلك الأغشية من العبرات التي جعلت الفراغ بين أهدابها مسكنًا لها

لكن ألمها أقوى فنزلت سهول تروي خديها الجافين والحزن والصمت أصبحا سيدى المكان..

توقفتُ أمام منزلي المُتداعي من فعل الرصاص، لأول مرة أنظرُ إليه برهبة وخوف، رهبة من جموده وصموده وخوفٌ منه بسبب وحدته ووحشته فقد ذهبت الروح التي كانت تقطُنه، ذهبت أمي..

نظرتُ إلى هيكله الخارجي ونوافذه المُتبقية، تلك النافذة التي على اليمين كنتُ أدفن نفسي بها كلما اشتقتُ لوالدي.

توفى بها أبي وهو يحارب مرض السل الذي حمله معه بعد أن أتى من صفوف الحرب.

إنني أسخط على الحروب أجمع. ففي حربي الأولى التي شهدتُها وأنا رضيع فقدت والدي قبل أن أميِّزه وفي حربي الثانية أُخذت مني والدتي.

مُحاولات إدراكي بأن والدتي قد رحلت وبأني لن أراها مرة أخرى تُشبه من يحاول أن يُبعد صخرة كبيرة عن مُنحدر، سقطتُ على الأرض خارت القوة فقد فتُرتُ وانكسرت وضعفت من بعدك يا أُماه

كانت تناديني بـ ياء التملك حين ترى الطين والتراب قد غطى ملابسي حتى تُعيد مناداتي لكن من دون ياء التملك "أيمني! أيمني! وحينما ترى ذلك الطين الذي يمشي خلفي تصرخ وتنهرني "كفى"

أركض بعيدًا والطين يمشي خلفي، أركض نحو الغُرف وأنا أضحك بينما هي تركض خلفي وتناديني باسمي دون ياء التملك وهي تتوعدني، ومن ثم تجثو على ركبتيها من التعب وصوت سعالها يملأ المكان..

كانت تنشد لي الأغاني الطفولية وما زال صدى صوتها يرن في أذني وهي تقول "نام يا وليدي نومة الهنية، نومة الغزلان في البرية" ويزداد سعالها وهي تربت على صدري بدلًا عنها.

كانت تغطيني جيدًا وهي تسعل أمامي وتحتضنني لتدفيني من نسمة هواء عابرة ومن كوابيس العناكب المزعجة ومن الزكام أيضًا، تغطيني وتنسى نفسها.

كنتُ أنزعج جدًا من اهتمامها الزائد بي وأنهرها وفي المقابل تُقبِّل جبيني وهي تقول "أخاف عليك يا أيمني" وأضيع أنا بعد أن تناديني بياء تملكها.

كانت دائمًا تناديني بأيمني حتى إذا رأت ذلك الطين الذي يمشي خلفي والتراب الذي يتساقط من حجري حتى نادتني مرة أخرى بدون ياء التملك

وهي بذلك تهددني وتنوي تعذيبي "أيييمن! لماذا عدت بملابس مُتسخة؟ كم مرة أخبرتك؟"

أخذتُ حُفنة من التراب ورميتها على رأسي وحُفنة ثانية وثالثة ورابعة وأنا أشهج مُحدِّثًا

"ثم ماذا يا أمي؟ ها قد اتسختُ واتسخت ملابسي! هل ستعاقبينني الآن؟ هل ستنادينني بـ أيمني؟ أخبريني هل توقفتي عن السعال أم ما زلت تسعُلين!"

"إن بي جرحًا عميقًا داويه أو قبَّليه حتى يبرأ.. قبليه حتى يُشفى من فراقك، أرجوكِ أجيبيني! أنا أيمنك الصغير، لقد اتسخت ثيابي هيا وبخيني!"

نهضتُ وأنا أنظر إلى المنزل وأنتظر الجواب، انتظرت وانتظرت لعل الرياح تهمس بصوتها علَّها توبخني، انتظرتُ سدى فقد ظَفَرَ الترابُ بها..

أناديها بكل حزنٍ وشوق

أفيقي يا أمي أنا أيمنك!.

اشتقت إليك ضميني

اشتقت لرائحة جسدك!.

***

توقفتُ أمام منزلها ذلك المنزل الذي أحفظ جميع تفاصيله الخارجيه، صحيح أن معالمه قد تغيرت جراء القصف، لكن هيَّكله واضح أمامي كما كان في السابق.

ترددتُ جدًا في طرق الباب خائفًا من فاجعة أخرى قد تصيبني وراغبًا في الآن نفسه فأنا بحاجة إليها بحاجة إلى جُرعة من العلاج لتُجبر الكسور التي بداخلي..

طرقتُ الباب ثلاث مرات على ما أعتقد وقلبي يخفق بشدة خوفًا ألا أجد أحدًا في الداخل ودعوت الله ألا يفجعني بأذاها

تنفستُ الصعداء حينما سمعت صوتًا "أنا آتي"

إنه صوت ذكوري رُبما يكون أخاها عُمر

فتح لي الباب نعم إنه أخوها

اندهش عندما رآني "أيمن! ماهذا يا رجل لقد تغيرت كثيرًا"

تبادلنا التحيات والسؤال عن الحال ببطء شديد رُبما هذا ما كنتُ أشعر به فلا أعلم ولم أع ما كنتُ أخبرهُ به فكنت متلهفًا لرؤيتها وعيناي تسترق النظر إلى الداخل لعلني ألمحها..

تهللت أسارير وجهي عندما طلب مني الدخول إلى الداخل، خطوت بخطى قصيرة وأنا مُطأطئ رأسي إلى الأسفل، فأشار لي بيده للدخول إلى غرفة الجلوس..

كانت جالسة على كُرسيها الخشبي وعندما رأتني همَّت بالوقوف بصعوبة بالغة.

توقف بنا الوقت في هذه اللحظة، لحظة التقاء أعيننا مع بعضها البعض.

كانت أعيننا تصف كل أحاسيسنا ومشاعرنا من شوق وحنين وعِتاب... نعم فقد رأيتُ نظرات العتاب بعينيها

رأيت علامات الذبول مرسومة أسفل عينيها فما بالك يا صاحبة الجنان؟

ماذا أصاب عينيك فقد كانتا تشرقان من شدة الفرح والآن أصبحت مسكنًا للأحزان؟

مشيتُ نحوها وعيناي تتفحصانها من أذى قد أصابها، مددتُ أُمسك يديها وأقبّلهُما وكان صدرها يعلو ويهبط، وبحركة سريعة ضممتُها إليَّ..

***

عندما رأيته هل شعرت بقليل من التوتر؟ بالطبع لا أنا أكاد أموت منه

شعرتُ بأن أحد أحبالي الصوتية قد عاد

وقفتُ من مكاني مبتلعة ريقي غير مصدقة اقترب نحوي كما فعلتُ أنا

لم أصدق عيناي ما تراه حتى أحسستُ به يُمسك بيديَّ ويُقبّلهُما

شعرتُ بأن دقات قلبي سوف تخرجه من مكانه.

لم أستطع تمالك نفسي أكثر فارتميتُ في حضنه أبكي فرحةً بعودته فقد كان أملي أن أراه يتلاشى يومًا بعد يوم..

لم يكن عناقًا ظاهريًا فقط. بل كان يحمل أسمى معاني الاشتياق والحُب..

ظللتُ أبكي وأشهُق كطفلٍ وجد حضن أمه فذهب يشتكي إليه، أبعدني وأمسك وجهي بكلتا يديه، نظرَ إليَّ بابتسامة محاولًا تهدئتي "اهدئي فأنا بجانبك، أخبريني ما بالك لما تبكين هكذا" نطقَ أيضًا مُحاولًا تلطيف الجو "هل أحزنك عُمر أم عمار؟ والرب إن أحرم مُسبب حُزنك فهذا سعادته"

اكتفيت بالبكاء فكيف لي أن أحادثه وأشتكي إليه وأن أخبره باشتياقي له بطريقة أخرى غير البُكاء.

ظل يحثني على الهدوء ويهدئني بكلماته محاولًا فيّ بالحديث "وخالق جمال عينيك القرمزيتين يا صفاء بأن قلبي قد فاض شوقًا إليك"

لا تعلم بعد يا حبيبي ما أصابني من بعدك فما عشته وما رأيته أكهلَني وأشيبَ برأسي.

قطع علينا جونا الحزين والحميم صوت أخي وهو يُحادث أيمن "لقد فقدت صوتها، لا تستطيع أن تتكلم"

ظللت منتبهة ومتشبثة بنظراته وبردود فعله، فقد نزل عليه الخبر كالنار التي نفخت على جُرحه الدامي

فلم يخف علي وجهه الجامد وعينيه الحمراوين عندما دخل فعلمتُ أنه قد علمَ بما حدث لوالدته..

أخذني وأجلسني على كنبة بجانب كُرسيي

نظرَ إليَّ وقد امتلأت عيناه بالدموع وهمس بنبرة مبحوحة "كيف حدث هذا؟"

"بسبب الخوف والفواجع، كانت قليلة الحديث" صمت فجأة

ثم أكمل "وبعد وفاة والدتي وعمار دخلت في صدمة كبيرة وجلَ وقتها جالسة على هذا الكرسي تنظرُ في فراغ واختفى صوتها مع انطفاء نور وجهها"

"كيف ماتوا؟"

تحَّدث عُمر بصعوبة بالغة "اشتد الضرب على المنطقة كثيرًا وأصوات طلقات النار لم تصمت لأيام طوال فكان عمار يخرج صباحًا يُشارك مع شباب أهل المنطقة بالإسعافات..

وفي يوم وصل خبر إلينا بأن "عمار" قد أصيب وهو يقوم بإسعاف شخص فانفجعت أمي وأصرت على أن تخرج تبحث عنه، حاولنا منعها ولكن لم نستطع فخرجت رغمًا عنا، خرجتُ بعدها بدقائق معدودة أبحث عنها لكني وجدتها جثة هامدة وأما عمار فلم يستطيعوا إسعافه وإخراج الرصاصة فمات هو أيضًا"

أغمض عينيه وعض على شفتيه" رحمهم الله، يا إلهي كم أصابتك من آلام يا حبيبتي!" أمسك بيدي يقبِّلهما "لكني أعدك بأننا سنتجاوز وسننجو من كل المصاعب"

الطُوفان

أرخيتُ جسدي على المقعد الجلدي وأنا أتحاشى النظر إليها فنظرات القلق والتساؤل مرسومة على محيَّاها.

أدرت بصري نحو أي شيء المهم الا تقع عيني في عينيها، ووجدت أخيرًا مُبتغاي فركزتُ على رأس مسمار أسفل النافذة فاسترسلت الأفكار إلى عقلي.

أسئلة كثيرة تدور بعقلي أشعر بأن كل ما عشته في السابق من مشاركتي في الحرب، وفاة والدتي حتى وجودي على هذا القطار مُجرد حُلم وسأستفيق منه في أي وقت

وفي أية لحظة سيعود كل شيء إلى ما كان عليه لكنه ليس إلا الواقع المُرير، أشعرُ برغبة في التقيؤ.

أحسست بها بقُربي فعدتُ إلى واقعي ورأيتها جالسة بجانبي..

أمالت رأسها ليتوسد كتفي اليمنى وحركتُ يدي لأقربها مني..

وضعتُ قبلة على رأسها فأدخلت يدها اليُمنى وأشبكتها مع يدي اليُسرى

همستُ إليها وقد أنزلتُ وجهي بالقرب من وجهها "هل تثقين بي؟"

هزت رأسها إيجابًا فأمسكتُ يدها اليُمنى وطبعتُ قبلة ثانية وثالثة "ثقي بي كثقتك الآن بأنك بجانبي سنكون بخير وسنعيش ما تبقى من حياتنا سعيدين معًا فمادمت أنت بجانبي"

هززتُ يدينا المُشبكة معًا "ومادمت أنك تتمسكين بي أعدك أن لن يصيبك أي أذى يا صاحبة العيون القُرمزية"

نظرت إليَّ نظرة اشتقتُ لها منذ زمن طويل وابتسامة ساحرة ارتسمت على شفتيها

قلتُ ملاطفًا وقد أعجبني استحياؤها "كيف لنا أن نبقى سعيدين وأنت بابتسامتك هذه تشرقين كشمس الصباح.."

وفي أثناء حديثي دخل أخوها عُمر حاملًا بين يديه شطيرة ومشروبًا غازيًا "أحضرتُ لك شيئًا لتأكله فأنت لم تأكل شيئًا وقت الغداء"

أخذت ما بين يديه "لستُ جائعًا لكن.."

لم أنه حديثي حتى خطف الشطيرة والمشروب من بين يدي فانصدمت من حركته.

نطق بينما يزيل الغلاف عن الشطيرة "إذا جعت فماكينة الطعام قريبة من هُنا"

ما زلتُ أنظر له مُنصدمًا، وبفم ممتلئ "شطائرهم هذه لذيذة"

شعرتُ بهزة خفيفة بجانبي فعلمتُ أنها تضحك فضحكتُ أنا الآخر..

أطلق القطار صافرته مُعلنًا عن قربُ وصوله إلى محطته مُخففًا من سُرعته نظرتُ نحو النافذه فظهر لي مبنى المحطة

"لنجهِّز حقائبنا ولا تنسوا شيئًا"

حمل عُمر حقيبتين بينما حملتُ أنا حقيبة. أما هي فتبعتنا بهدوء ولم يغب عني قلقها وفركها باستمرار لراحة يديها

أمسكتُ يدها بحركة مُطمئنة لها..

وصل القطار ونزلنا منه، كان المكان مُكتظا بالناس ولم يغب عني قلقها، شددتُ قبضتي على يدها ورحتُ أمشي بصعوبة بين الجمع الغفير وعُمر يمشي خلفنا..

توقفنا أمام قطارنا الأخير نظرتُ إلى ساعتي "تبقى عشر دقائق وينطلق هل يريد أحدٌ منكم شيئًا قبل أن نركب؟"

هزوا رؤوسهم نفيًا

"هيا بنا إذن"

أعطيت العامل تذاكرنا ودخلنا القطار فكان يختلف تمامًا عن القطارات التي ركبناها في رحلتنا هذه فهو صغير وليست به غُرف مخصوصة للركاب فكان شبيهًا بالحافلات لكن بصورة أكبر قليلًا..

وضعنا حقيبتين بالأعلى بينما الثالثة وضعناها أسفل أقدامنا

جلسنا أنا وعُمر بجانب بعضنا. أما هي فجلست مقابلةً لنا

أحسستُ بعدم ارتياحها واضطرابها الواضحين وهي تلتفت وتتأمل في وجوه الناس

***

ما إن أعلن القطار التحرُك بصافرته حتى دوى صوت مُزعج واهتزازات قوية ناهيك عن أصوات المسافرين ووقع أقدامهم كُل هذا أصابني بالغثيان.

سمعتُ بصعوبة عُمر وهو يحادث أيمن "كم سنمضي؟"

"أربع ساعات ونصف الساعة"

أردف عُمر "القطار مُكتظ بالناس هذا ليس طبيعيًا"

هذا صحيح فالمكان يكاد يختنق من كثرة الناس وكان خلفي طفل يصرُخ بشكل مُزعج.

توقفت امرأة كبيرة في السن أعتقد أنها في عقدها الخمسين بسبب التجاعيد المرسومة على وجهها وقالت كلمات لم أستطع فهمها فأنا ضعيفة جدًا في اللغة الإنجليزية فلا أحفظ غير حروفها وبعضٍ من كلماتها.

تحدث إليها أخي عُمر فشكرتهُ وجلست بجانبي فعلمتُ بعدها أنها كانت تستأذن للجلوس

مرت نصف ساعة بطيئة على انطلاقنا وفي هذه الأثناء تلقت المرأة التي بجانبي اتصالًا فاستمعتُ لحديثها بإمعان

لم أفهم سوى بضع كلمات بسيطة

أقفلت اتصالها فتمنيتُ لو أطالت قليلًا لأستمع إليها أكثر.

عم الهدوء القطار حتى ذلك الطفل قد هدأ أظنه قد نام..

التفتُ إلى أيمن وقد أقلقني سكونه هذا كثيرًا رغم أنه كان دائمًا هادئًا لكن هدوءه وسكونه هذه المرة غريبان لقد كان مُختلفًا، شعرتُ بأنه مهموم، وهذا يزيدني جُرعات من القلق

التفت إليَّ فرآني أنظُر إليه فظهرت على وجهه ابتسامة قلقة، فبادلته الابتسام.

طوال رحلتنا وأنا أشعر به يسترق النظر إلي بين الفينة والأخرى.

أخرجَ هاتفه من جيبه ورأيت اختلافًا لملامحه بين كل دقيقة وأخرى فانتابني الفضول لمعرفة ما كان يرى..

***

أخرجتُ هاتفي من جيبي فظهرت لي عشرات التنبيهات على الشاشة.

مكالمتان من خالد ابن عمتي ومكالمة من صديقي الكاتب الذي تعرفتُ عليه في المعسكر فاستغربتُ من اتصاله كثيرًا. فلم يكن يُسمح لنا باستخدام الهواتف هل من الممكن أنه قد خرج!

ومكالمتان من رقم غريب أجهله، فتحت رسائلي النصية كانت هناك رسالة من خالد ابن عمتي يسبني ويصفني بالجبان بسبب هروبي وفعلتي.

حقيقةً أنا لا ألومه فأنا من كنتُ أحث الجميع على المواجهة وعدم الهروب لكني لم أنجح فانسحبتُ لأنقذ نفسي وأنقذ من أُحب فلا يُمكن أن أكون أنانيًا أكثر من ذلك.

فأنا قد ظلمتُ نفسي ولا أريد أن أظلم صفاء أيضًا

رسالة ثانية من عمتي والدة خالد تُعبرعن قلقها عليَّ وتطلب مني الاتصال بها وطمأنتها عندما أصل.

ورسالة أخيرة من صديقي فادي يخبرني بأنه أنهى جميع ترتيباتنا ودبر لنا سكنًا صغيرًا وأنه في انتظارنا..

فتحتُ برنامج أغانيَّ المُفضَّلة ولبست سماعاتيَّ لكن لم تمر دقائق معدودة حتى شعرتُ بالضيق فأقفلتُ الأغاني وأعدتُ وضع هاتفي في جيبي.

أما صفاء فأرجعت رأسها للخلف وأغمضت عينيها وفعلتُ أنا أيضًا بالمثل، ولكن عاد صُراخ الطفل الذي أمامي فعبستُ بوجهي

مر الوقت بثقل شديد..

زادت حركة عُمُر بجانبي وأطلق تنهيدة خفيفة تُعبر عن القلق الذي كان يعتريه، همستُ له "اهدأ يا عُمر سيساعدنا ربي إن شاءالله"

أطلق القطار صافرته وزاد من صفير مُحركه..

توقف ووصلنا إلى مدينتنا المنشودة فميونيخ، نزلتُ ممسكًا بحقيبتين، أما أيمن فقد حمل حقيبة ويد صفاء ممسكًا بها في اليد الأخرى..

خرجنا من مبنى المحطات ووقفنا بجانب الطريق توقف كثير من السيارات لتقلنا لكن كان أيمن يعتذر ويصرفها، أجرى أيمن مكالمة وماهي الإ دقيقتان حتى أتت سيارة لتقلنا..

وضعتُ الحقيبتين في شنطة السيارة وأخذتُ الحقيبة التي كان يحملها أيمن ووضعتها بجانبهما..

ركبَ أيمن في المُقدمة بينما ركبتُ أنا وصفاء في الخلف كان السائق صديق أيمن، فادي صديق أيمن من أيام الجامعة الذي رحب بنا بحرارة

لم أكن بحال يسمح لي بالتحدث والأخذ والعطاء بالحديث ولكن حاولت أن أتفاعل معه قدر الإمكان بينما اعتذر أيمن بأن يغفو قليلًا فكان يشعرُ بصداع..

كان يحدثني عن أول زيارة له في فميونيخ وعن الناس والأمور العامة هُنا وتحدث عن الحي الذي سنسكن فيه أيضًا فأخبرنا بأنه حي عربي..

توقف بنا أمام عمارة تمتاز بطولها المرتفع وعُرضها الصغير، شعرتُ بأنها ستقع من ارتفاعها الشاهق

نزلنا من السيارة وحملنا حقائبنا وسبِقنَا فادي ليرينا الطريق إلى الشقة، ضغط زر المصعد ففتح لنا على الفور ودخلناه.

ضغط فادي على الرقم خمسة عشر وكانت تليه خمسة طوابق أخرى وفي هذه الأثناء جلستُ أفكر ماذا لو تعطل هذا المصعد كيف للناس أن يصعدوا أو ينزلوا؟!. هذه الأدوار كثيرة.

أعلنتُ بعدما فتح باب المصعد بأن بابًا جديدًا من حياتنا سيُفتح وهذه البداية بإذن الله..

دخلنا إلى الشقة الصغيرة فأرانا فادي إياها وأخبرنا مُطمئنًا بأن كل شيء على ما يرام وأنه قد دفع إيجارها فوعدناه أنا وأيمن بأننا سنقضي له دينه ولن ننسى معروفه هذا ما حيينا..

تتكون الشقة من غرفة نوم رئيسية وغرفة وحمامين ومطبخ صغير وغرفة استقبال صغيرة لكنها أنيقة.

"سأدعكم ترتاحون من رحلتكم الطويلة، استمتعوا بأول يوم لكم في فميونيخ يمكنكم المشي في الحي وفي نهاية الشارع ستجدون بقالة صغيرة لكن جميع منتجاتها منتجات عربية، وانتبهوا من الطعام"

أعطانا مفتاح الشقة ونسخة منه، ودَّعناه وقد اتفقنا على موعدٍ غدًا لكي يرينا المدينة ونبحث لنا عن عمل.

توقفنا ثلاثتنا ننظر إلى الشقة بهدوء حينها نطق أيمن "حسنًا صفاء ستأخذ الغرفة الرئيسية بينما أنا وعمر سنأخذ الغرفة الثانية"

أخذت صفاء حقيبتها ودخلت غرفتها، قلتُ بصوت منخفض "كم إيجار هذه الشقة؟"

ربت أيمن على كتفي "لا عليك سنستطيع دفعها المهم أن ترتاحوا نفسيًا وجسديًا"

ودخل إلى الغرفة لحقتُ به فرأيته قد وضع جسده على سرير أسفل النافذة عبستُ بوجهي فقد كنتُ أريده لأن السرير الآخر تخترقه أشعة الشمس..

وضعتُ حقيبتي ودخلتُ للاستحمام، إنني مرهق بشدة وأشعر بألمٍ حاد في رأسي وكأن هناك عاملًا مُزعجًا قد ضرب مسامير في جبهتي، لا أشعُر بالنوم ولكن أفكارًا كثيرة تدور في عقلي وتعتصره.

فكرتُ في الخروج لكي أشتري لنا بعض الطعام، فأنهيتُ استحمامي سريعًا

"أيمن سأخرج لأبحث لنا عن طعام"

"حسنًا خذ مالًا من محفظتي"

خرجتُ مشيًا على الأقدام، أحسستُ بوحشة رهيبة رغم وجود الناس من حولي في كل مكان أعجبني منظر النساء وهن يرتدين الحجاب فابتسمتُ لرويتهن فهذا يُذكِّرني بموطني وبحضارتي..

فميونيخ جميلة ولكن جمالها كئيب وموحش، رُبما لأني أشعر بالضيق والكآبة..

عدتُ إلى شقتنا الصغيرة الجديدة فوضعت الأغراض التي أحضرتها في المطبخ وطلبتُ من صفاء تحضير الساندويتشات فلم أجد مطاعم بالقُرب من هنا..

انتهى يومنا عند الساعة التاسعة فدخلت صفاء غرفتها لتنام أما أيمن فمنذ وصولنا وهو نائم ولم يفق.

حاولت النوم ولكن عاد الألم الذي كنت أشعر به في رأسي بقوة أكبر من قبل، شعرتُ بأن رأسي سينفجر، تقلبتُ كثيرًا محاولًا تجاهل الألم والنوم وأخيرًا لقد أفلحت..

***

استيقظتُ من نومي وجسدي يؤلمني بشدة حاولت الجلوس بصعوبة شديدة

خرجتُ من الغرفة وتوجهتُ إلى المطبخ لأصنع لي شطيرة فكنتُ جائعًا

ذهبتُ وجلستُ أمام التلفاز، كنتُ ممسكًا بجهاز التحكُم أتنقل من برنامج إلى آخر بضجر، أنهيتُ شطيرتي ووقفتُ لأستدير ذاهبًا للمطبخ، أحضرت لنفسي قنينة ماء..

واستوقفني صوت بكاء آتٍ من غرفة صفاء.

طرقتُ الباب أكثر من مرة ولكنها لم تجب فلم أستطع الوقوف مكاني فدخلتُ الغرفة..

توقفتُ ترددت وبخطوات مضطربة تقدمتُ إليها لم أعلم ما الذي يجب أن أقوله لصفاء

كنتُ ضعيفًا أمامها وأمام دموعها تمنيتُ لو أنها تستطيع أن تتحدث وأن تخبرني مابها، لكن لا أستطيع أن أصمت وأن أراها صامتة..

بقيتُ واقفًا بجوارها، لم أستطع أن أتظاهر بالقوة وأهونها عليها! حاولتُ التحدث ولكن بدا أن أحرفي قد خانتني وهربت مني، كان لابُد أن أتدخل

جلستُ أمامها وأمسكتُ بيديها شبكتهما ووضعتهما بالقرب من صدري سألتها "مابك؟"

زاد بكاؤها ونحيبها وانفجرت عيناها دموعًا مضاعفة..ماذا فعلت أنا! لو بقيت صامتًا كان أفضل..

مسحتُ دموع عينيها ونطقتُ بسؤال أحمق آخر "لماذا تبكين؟" لم تجبني وظلت تحدِّق في الأرض ودموعها تتساقط

لم أستطع رؤيتها تبكي هكذا فقد أحسستُ بأني أريد البكاء أيضًا ولكنها أنقذتني عندما نطقت "تعبت..تعبت يا أيمن"

لم أصدق ما سمعته أذناي شعرتُ بأنني أريد البكاء لكن هذه المرة بكاء فرح، مددت يدي لها بقنينة المياه "اشربي بعض الماء"

أخذت القنينة لتشرب وأخرجت تنهيدة من أعماقها..عدتُ أمسك بيديها وضغطت عليهما "لاعليك أتشعرين بتحسن؟"

أومأت برأسها...

قبَّلتُ يديها بفرح ولهفة "تحدثتِ يا صفاء! أنا سعيد حقًا"

ابتسمت في وسط دموعها وأنزلت رأسها خجلًا، اقتربتُ منها وانحنيت برأسي قليلًا لأسترق النظر إليها "وجهك جميل وهو محمر هكذا"

أدارت رأسها حرجًا ولم ترد

***

خرجنا معًا نتمشى في المنطقة

بدت فميونيخ في نظري أكثر بهجة فكانت ملونة بضحكات صفاء وحديثها معنا أراحني وأزال عني كل التعب، أحببتُ ضحكتها رغم أنها تصمتُ فجأة ويتغير لون وجهها وتذهب للبعيد..

لكن سرعان ما تعاود الضحك وكأن بداخلها روح طفلٍ صغير، فميونيخ الحسناء مُذهلة بضحكات صفاء

عدنا لشقتنا الجميلة الصغيرة

نطق عمر "كانت ليلة رائعة، سأذهب لأستحم ثم أنام" دخل عمر وبقينا أنا وصفاء واقفين وحدنا

"نعم ليلة رائعة شكرًا لكما"

ابتسمت صفاء قائلة "شكرًا لك أنت على هذا اليوم الجميل"

استدارت متجهة إلى غرفتها لكني أمسكت يديها "غدًا سيكون أول يوم عمل لي"

صمتُ قليلًا وفركت رأسي "إذن فهذا مناسب ما رأيك أن نكتب كتابنا في نهاية هذا الشهر"

أومأت برأسها إيجابًا واحتضنتني قبل أن تذهب إلى غرفتها مُسرعة..

بقيتُ واقفًا مصدومًا ومبتسمًا لا أعلم كيف يمكن أن أصف شعوري بعد أن احتضنتني، لكني شعرتُ بأن دقات قلبي قد سمعها جميع القاطنين بالعمارة..

أخفيتُ ابتسامتي ودخلتُ إلى غرفتنا فوجدتُ عمرُ قد غط في النوم بملابسه

***

توقفتُ أمام المرآة أنظُر إلى نفسي التي لم أعرفها، وجهي الذي لم يكن يفارقه الفرح والبهجة التي لم تستطع أية قوة إطفاءها قد اكتسحته الآن التجاعيد والهالات السوداء والبثور على وجنتيَّ.

تذكرتُ قصيدة شاعر وصف وجنتيَّ حبيبته بالبساتين التي تُزهر بسبب الدموع التي تسقيها.

عن أي بساتين يتحدث كيف لوجنتيها أن تُزهرا بفعل الدموع! لا أرى في وجنتيَّ سوى أرض قاحلة لم تُسبب لها الدموع غير الجفاف..

سكن الليل وسكنت الحياة وبين ستار النوم سكنت أحلامنا..

جلستُ بجانب زجاجة نافذتي الضبابية التي احتضن جميع زواياها صقيع شتاء ديسمبر، أضاء البرق الغُرفة وزلزلها الرعد بصوته المُهيب، ثم عاد الظلام مرة أخرى.

قضمتُ قطعة من الشكولاتة السوداء الداكنة اللذيذة فعادة أكل الشكولاته قبل النوم تلازمني منذ صغري وتشعرني بالدفء وتمدني بالسعادة..

استلذذت بطعمها الرائع وأنا أستذكر ما حدث قبل قليل مع أيمن وقلبي يرقص فرحًا..

***

أنهيت استحمامي ودلفتُ إلى غرفتي

تلحفتُ بغطاء السرير ولأول مرة منذ زمن بعيد أستطيع القول بأني سأنام وأنا مرتاح البال وسعيد، فبشكل عام أمورنا بدأت في الاستقرار... أغمضتُ عينيَّ فارتسمت بمخيلتي صورة صفاء ستكون أجمل نومة على الإطلاق بما أن وجه صفاء آخر ما رأيته..

ولكن الليالي الدميمة لن تسمح لي بالنوم بهذه السهولة فنفخت في عقلي أفكارًا وذكريات سلبت مني النوم..

الساعة الرابعة فجرًا إلا الربع*

أزلتُ غطاء السرير من على وجهي ونظرتُ في أنحاء الغرفة وشيئًا فشيئًا تزداد معالم الغرفة وضوحًا حتى بت أرى ما بالغرفة بشكلٍ واضح.

جلتُ بنظري بأنحائها حتى وقع نظري على ظل طيف أحدهم بين النافذة وإحدى زوايا الدولاب.

أغمضت عينيَّ وحسبتها إحدى تخيلاتي حتى وصل صوت إلى مسامعي، كان صوتًا مختلفًا بنحيب غير مفهوم

خبأت وجهي تحت الغطاء فقد شعرتُ بالخوف يتملكني فهذا الصوت الذي أسمعه ليس وهمًا!

اخترق الغطاء صوت خطوات تقترب مني بكل وضوح وكأن الأرضية مصنوعة من الخشب وليس السيراميك!

رفضت فكرة المواجهة أو القيام بأية ردة فعل بينما أطلقتُ على نفسي جميع أنواع الشتائم التي شهدها التاريخ، سارعت بإلقاء نظرة فرأيتها قريبة جدًا مني فلم تسمح لي بإلقاء نظرة تفحص كاملة عليها.

كانت فتاة ضئيلة الحجم صغيرة في العمر، سأعطيها ثمانية أعوام..لا لا هي أكبر من ذلك رُبما تسعة أو عشرة تلبسُ معطفًا أحمر اللون ثقيلًا وتحمل قبعتها بيدها اليمنى ولم تنفك تخرج سبابتها من ثقب قبعتها حتى تدخله مرة أخرى..

سيطر على المكان الهدوء والسكينة تنظر إليَّ بنظرة خالية من المشاعر ولكن بداخلي أصواتًا تتعإلى وتصرخ بالاستيقاظ.

رفعت رأسها فظهرت على وجنتيها بثور صغيرة باللون الأحمر القاني على خديها لا أعلم كيف رأيتها والمكان شبه مظلم، فمرض التفاصيل الصغيرة المُملة مُلازمني ولم يفارقني حتى بهذا الموقف..

أسندتُ ظهري إلى ظهر السرير وهمستُ لنفسي "أيعقل أن أتخيل جسدًا بهذا الوضوح؟"

"سـ..ساعدني" أصدرت صوتًا حتى تمكنتُ من استيعاب ما أبصره

تصنعتُ محاولًا الثقة "م..منن؟"

تقدمت خطوة وشعرتُ بأنها أصبحت قريبةً جدًا مني، سرت قشعريرة في كامل جسدي وبرودة في أطرافي

أردفت هي "أستطيع سماع رعشة جسدك وصرير أسنانك، ونبضات قلبك التي تكاد تخرج من صدرك، لا داعي للخوف مني فأنا أريد منك مساعدتك لي فقط"

جلست بجانبي ووضعت يدها علي يدي، المفاجأة أنني أحسستُ بدفء انتشر في كل أنحاء جسدي، ابتسمت هي مُطمئنة "هل أنت بخير الآن؟"

أومأت برأسي ايجابًا "مالذي أتى بك؟ ومن تكونين؟"

نظرت إليَّ بعينين واسعتين "لكن نحنُ قد التقينا من قبل"

قطبتُ حاجبيَّ "كيف؟ أين!"

"عندما كنتُ تقف أمام ذلك المنزل كان أخي الصغير واقفًا أمامك تنظر إليه وهو ينظر إليك هل تذكرت؟ أمام منزل الأرملة التي طعنت قائدكم فقمتم أنتم بقتلها هي وطفلها الرضيع"

أطبقتُ شفتيَّ صامتًا وأنا أتذكر ذلك الموقف.

"كنتم أنتم السبب في موت جميع أهلي والآن أريد أن تكفر عن ذنبك وأن تساعدني"

انزلقت عيناي إلى الأرض "كيف أستطيع مساعدتك؟"

أخرجت ورقة من معطفها "اذهب إلى هذا العنوان الأول وابحث عني هناك، وأريدك أن تعطي المسئول هناك العنوان الآخر"

تجمدت ملامحي "أبحث عنك؟ لم..ماذا؟ ألست حقيقية!"

توقفت بسرعة أمامي وهزت رأسها نافيةً "لا لستُ الا محض خيال تراه" واختفت فجأة في لمح البصر

لكن كيف؟ كيف استطاعت لمسي واستطعت أنا بدوري الشعور بها كيف!؟.

قطع علي فكري وتساؤلاتي صوت شخير عُمر! فعُمر نائم هنا كيف لم يسمع شيئًا من حديثنا ولم يستفق!

همتُ بالوقوف لإيقاظ عُمر وإخباره بما حدث لكني لم أستطع التحرك من مكاني! ما الذي يحدث لي لماذا لا أستطيع التحرك؟.. حاولت التحدث لكني أشعر بشفتيَّ تتحركان ولا أسمع صوتي!

قبل قليل تمكنتُ من إسناد ظهري إلى السرير وهأنا ذا مستندٌ عليه لكن الآن كيف لا أستطيع تحريك جسدي!

***

يقف أمام مبنى كبير حديث البناية يتوسطه باب خشبي ويتميز بنوافذه الكثيرة الزجاجية، تعكس أنوار الشارع زخرفات المبنى المميزة وكأنه أتي من القرون الوسطى..

يحمل بين يديه باقة ورد أرجوانية اللون لا يعلم كيف استطاع الوصول إلى هنا شعرَ بأنه مُسير

صعد درج المبنى وضغط على جرس الباب وماهي إلا ثوان حتى فتحت له سيدة مسنة تجاوزت الخمسين من عُمرها

"تفضل بالدخول يا سيدي، يا إلهي إن الجو قارس بشكل كارثي أتمنى ألا تشتد الثلوج أكثر"

ابتسم لها "أشكرك، أين هي صاحبة المبنى"

أشارت إلى باب كان الوحيد في هذا الدور ويتوسط قاعة المبنى درج كبير يؤدي إلى الأعلى.

طرق الباب ففُتح له فور أن همَ بالطرقة الثانية، كانت شابة في السادسة والعشرين عامًا تتوسط عينيها نظارة سميكة جعلتها أكبر مما تبدو

عليه وبدون أن تتحدث أشارت إليه بالمشي خلفها فتبعها وفتحت له بابًا آخر داخل الغرفة..

كانت تجلس على طاولة خشبية كبيرة موليةً له ظهرها، ترنح أيمن لإلقاء التحية "مرحبًا سيدتي"

أدارت كُرسيها فورًا وأشارت له بالجلوس "تفضل، هل أستطيع مساعدتك"

"أعتقدُ ذلك"

"كيف ذلك؟" قالتها وهي تنظر إلى باقة الورد التي بين يديه

"أنا أبحث عن فتاة أظنها تقُطن هنا"

أمسكت بقلمها تُحركه يمينًا ويسارًا "هل ستقدم على طلب تبنٍ!"

"لا..ليس هكذا" أخرج ورقةً من جيب معطفه "هُنالك فتاة اسمها وداد عبدالله عيد عُمرها مابين التاسعة و العاشرة ترتدي معطفًا أحمر و..وقبعة سوداء مثقوبة، أعتقد أن ثقبها من الأعلى، أخبرتني بأني سأجدها لديك"

"اسمها غريب! هي ليست من هنا صحيح؟"

انفرجت أساريره "نعم..نعم إنها ليست من هنا"

نزعت نظارتيها ووضعتهما فوق شعرها "هذه الجمعية قمنا بافتتاحها قبل أسبوعٍ واحد، والأطفال المتواجدون هُنا عددهم ثلاثة فقط وأنا أعرفهم جيدًا ولا أعتقد أن من تبحث عنها متواجدة هُنا"

كأنه كان متوقعًا حديثها فلم ينصدم، توقف في مكانه ونظر إلى الباقة التي يحملها بين يديه

"هذه الباقة كانت ستكون لها، لكن تفضليها" وقدم لها باقة الورد

ابتسمت شاكرةً "حقًا كنت أريد مساعدتك..لحظة هل تريدني أن أبحث عن اسمها في الجمعيات الأخرى؟"

مددتُ لها بورقة "لا أشكرك لكن إذا رأيتها يومًا ما أريد منك الذهاب معها إلى هذا العنوان"

لم يعطها مجالًا للرد فالتفت فورًا وخرج من المكتب

نظرت إليه مستغربةً "يأتي للبحث عنها هُنا ولا يريدها" نظرت إلى الورقة "ولماذا قد يظن أنني قد ألتقي بها! أظنه مختلًا"

فتحت درج مكتبها الأول ورمت الورقة به، نظرت إلى الورد وكانت تحب هذا اللون الأرجواني وضعتها جانبًا أثار هذا الرجل فضولها أمسكت بقلمها وكتبت على صفحة اليوم من تقويمها السنوي وداد عبدالله عيد

تنهدت برضا وعادت إلى ما كانت عليه من عمل..

"الكاتب"

رأيت أيمن يتوارى في الخلف يمشي مُبتعدًا عنا فلحقت به

"أيمن؟ إلى أين أنت ذاهب؟"

توقف مكانه ولم ينبس ببنت شفة

التفت إليَّ وشعرت رجفة بصوته سأقوله "أنا..أنا أبحث عن...أهذا أنت؟"

رفعتُ حاجبي وعلامات القلق مرسومة على وجهي رفعَ حاجبيه "نعم أنا! ماذا تفعل؟ أين ستذهب؟"

"سأخبرك لكن عدني ألا تُخبِرَ أحدًا، سأهرُب"

"ستهرُب إلى أين؟"

"إلى مدينتي وقريتي"

أكمل سيره بينما توقفتُ مكاني أفكر ماذا أفعل هل أتركه ينجو بفعلته، لكن ارتسمت أمامي صورة القائد وهو يُكِّرمني ويعلنني قائدًا ثانيًا، فهرولتُ لأخبره

نشر القائد خبر هروب أيمن وأمر الجنود بإمساكه وبدأنا في ملاحقته

***

صباح يومي الأسود كان هذا قبل أسبوعين..

كنتُ واقفًا أمام المرآة أهندم ملابسي وقد احتشدت الوجوه في مرآتي لدرجة أنني أضعتُ وجهي الحقيقي أين أنا؟ أي هذه الحشود هي وجهي؟

أحدِّق في مظهري أنظُر إلى وجهي الذي قد هرِمَ وشاخ، يُخيل لي دومًا أني أبتعد عن الحياة إلى هاوية ما..

لمستُ جرحي الذي على خدي اليمنى وقلتُ مُحدثًا نفسي "ها قد أصبحت لديَّ ندبة في خدي اليمنى لتزيدني قُبحًا، ألم تكن تكفي التي على خدي اليُسرى"

خرجَ ذلك الصوت الأنثوي مُحذرًا "توقف عن لمس جرحك إذا كنتَ تريده أن يندمل سريعًا"

استدرتُ بابتسامة مُرحبًا بفتاتي "اشتقتُ إليك أين كنتِ بالأمس"

أشاحت بنظرها عني غير مهتمة ثم همت لترتب ملابسي الملقاة في كل مكان

بدا عليَّ الانزعاج فأمسكتها من يديها "أنا أحدثك أجيبيني"

ظلت صامتة وفجأة التفتت إليَّ وقد نزلت دمعة على خدها اليسرى وهي تحاول أن تسحب يدها من تحت قبضة يدي.

"أنت تؤلمني أترك يدي"

أفلتُ يدها وعدتُ لموضعي أمام المرآة ألبس بدلتي، ارتديت سترة مطرزة بخيوط ذهبية اللون على جانبيها وبنطالًا بذات لون السترة..

التفتُ أنظر إليها فلم أجدها

وضعتُ ساعتي في جيب سترتي الأمامي..

التقطت دفتري الذي رافقني منذُ وصولي هُنا وخرجتُ إلى الجبهة لأرى ما حال الجنود فلم يتوقف إطلاق النار منذ البارحة...

مشيتُ بين الجنود برأس شامخ أرمي عليهم كلمات تشجعهم وتزيدُ من حماستهم وقوتهم...

لمحتُ جنديًا خلف مترسة كان مُصابًا ولكنه حامل بندقيته وصامد تجاه ألمه، اقتربت منه سائلًا "هل أنت مُصاب"

تحرك في جلسته "نعم يا سيدي" ولكن لم يُكمل حتى حرَّك كتفه المُصابة وعض على شفتيه من الألم

فصرختُ لأحد حرسي قائلًا "خذوا هذا الجندي وأسعفوه في الحال"

نطق واحد من الجنود "فليأتِ أحدكم للمناوبة هُنا"

شعرتُ بأنني قد اشتقتُ للتصويب فمنذُ أصبحتُ فالتصويب بالسلاح هو أحد أفضل هواياتي قلتُ للجندي مانعًا "سأجلس خلف هذا المترس قليلًا"

حشيتُ البندقية ووضعتها على قاعدتها وأنا أحأول أن المح أحد جنود العدو.

لمحتُ أحدهم يتحرك فتعدلتُ في جلستي وأنا أتجهز لأضغط على الزناد فقلتُ هامسًا لنفسي "لا يوجد قناص أمهر مني عرفته البشرية"

وما إن لبثت أكمل جملتي حتى شعرتُ بشيء ينساب من الأعلى غطى علي عينيَّ الرؤية حينها استقرت رصاصة بمنتصف جبيني

صرختُ أو هذا ما ظننته إنني أحاول الصراخ، لا أستطيع الحراك.. جسدي ما عدت أشعر به رؤيتي أصبحت ضبابية وتتلاشى شيئًا فشيئًا

ارتفعت عيناي إلى الأعلى عاليًا جدًا إلى تلك السماء الزرقاء يا سبحان خالقها هل سأرحل إليها أم سأنزل إلى الأسفل؟. هل سيتم دفني أم سأبقى هنا؟

ماذا عن النهاية؟ نهاية قصتي من سيكتبها؟ ها قد أحضرت دفتري معي وكأنني كنت مُتجهزًا لهذا أحاول التحرك والوصول إلى دفتري أريد الكتابة بدمي، نعم الكتابة بدمي لتكون هذه نهاية قصتي.

دائمًا ما كنت أسمع تلك المقولة التي يتداولها الجنود عندما كانوا يتحدثون عن الموت والخوف منه... كانوا يقولون "الرصاصة التي ستقتلك لن تسمعها". فكنتُ أتساءل دومًا عن صحة هذه المقولة وأؤكد لكم بأنها صحيحة فلطالما ظننتُ بأنني سأعيش حياة طويلة لذلك لم أكن أنجز أي شيء أريده سريعًا، لأني كنت أقول بأنني سأفعل كل شيء لاحقًا

أشعرُ بألمي بدأ بالزوال حتى لم أعد أشعر به أعتقد بأن الآن تخرج روحي عن جسدي ولكن هذا غريب فأشعر بأنها تخرج بكل خفة كروح نقية بدون خطايا ولكن من أين وأنا مليء بالخطايا.

ارتفعت روحي فباستطاعتي الآن النظر إلى جسدي نظرتُ لما حولي فلم أكن وحدي فقط، فقد امتلأت الساحة التي خلفي بالدماء وها هم الجيش المقابل لنا قد اكتسحوا المكان مُعلنين انتصارهم..

أحاطت الدماء المكان ورؤوس جنودي تتدحرج نحو الهاوية وأخيرًا انتهت هذه الحرب اللعينة، انتهت بالهزيمة وامتلاء لوحتنا بالدماء

لقد مر أسبوعان على شهقتي الأخيرة وهأنا ذا خلف مترسي أجلس ممسكًا ببندقيتي لم يعد يتميز بي شيء غير ملابسي ودفتري الذي كان مُخبأ تحت السترة

أنظر إلى منظري الذي يُرثى له

ماذا تراني كنت غير جندي شاب شبعت أمه النواح عليه .

وماذا تراني أصبحت غير بقايا عظام لم يبق أحد للنواح عليها.

لكني في أول الذبول تمنيت أن لا أُنسى

وفي آخره تمنيت أن لا تُزهر ذكراي

لقد شخت يا أُماه قبل أول تجعيدة تكتسي جلدي

قبل أن أشهد رهبة أول شعرة بيضاء تعكر صفو شبابي

بقيت وحيدا في مكان مقرف وفي ظلمة مخيفة

وإن لم أكن أخاف الظلام فقد خفت من ضوء الظلام وصوته

سمعت يا أماه سمفونيات الديدان التي تهشم لحمي العفن

وصوت الصراصير الليلية التي اتخذت من جثتي مكانا للوقوف عليه

سمعتُ كل هذا ولن أستطيع سماع شيء بعد هذا.

الفهرست